

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
الدراسات العليا - الآداب والنقد



أبو القاسم الشابي
دراسة في حياته وأدبه

٢٠٠٢٧٨٦
بحث مقدم

من

الطالب: فخرى أحمد حسن طمليه

١٩٧٤ - ١٩٧٣

الفصل الثالث : طابع شخصيته

- (١) التشائم ٤٠
- (٢) فلسفة الموت عند أبي القاسم الشابي ٦٢
- (٣) موقف الشابي من شعبه ٧٤
- (٤) موقفه من الدين ٨٨
- (٥) موقفه من القديم ودعوته الى التجديد ٩٥
- (٦) آثار الشابي الادبية ١٠٧

الباب الثاني : شعره وشاعريته

الفصل الاول :

١ - تجربته الشعرية

- أ (مفهومه للشعر ١١٣
- ب (تأثيره بالمدارس الادبية المختلفة ١١٨ - ١٢٦
- (١) تأثيره بالادب العربي القديم ١١٩
- (٢) تأثيره بالادب الاجنبية ومدرسة الديوان ١١٩
- (٣) تأثيره بجماعة "أوبللو" ١٢٠
- (٤) تأثيره بشعراء المهجر ١٢٣

٢ - منزلته الشعرية :

- أبو القاسم شاعر ذو سمعة عالمية ١٢٨
- الفصل الثاني : اهم اغراض شعره وخصائصه الفنية ١٣١ - ١٤٩

(١) الرثاء

(٢) شعر الطبيعة

صفحه

١٤٠

١٥٠

١٥٢

(٣) الفضل

الخاتمه

المراجع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمته

ان كتابة بحث في موضوع ما في الادب العربي ، تقتضي وقوف الباحث طويلا ، متأملا مفكرا ، فهذا الادب عريق ، ممر في أطوار متعددة ، وفي مراحل تاريخية تمتد الى اعماق التاريخ بدءا بالعصر الجاهلي وامتدادا في العصور التي لحقته حتى يومنا هذا . ولما كان القديم والوسيط قد حازا على كثير من الابحاث نوهت بها ، وبنيت عناصر القوة والاشراق فيها ، وبمفر ما اعتراها في عصر عصورها من تخلف وجمود ، أحببت ان يكون بحثي في الادب العربي المعاصر ، الذي لا يزال يخط طريقه نحو المسموق والارتفاع ، ليعيد لهذا الادب فناء مستفيد من منافع تاريخه الثرة ، ومما وصلت اليه حضارة الانسان المعاصر في شتى مجالات الحياة ، خاصة الادبية منها ، ولأن الأمة العربية تواجه التحدي ، فلا بد للأدب ان ينهض بدوره في توعية الناشئة من أبناء الأمة ، يصور لها الواقع ، بل وينفذ فيه ، ليكشف عن مكامن البداء ، ينير العقل ، ويفذ العاطفة ، ويهdy الى التدريب ، ووقفت هنا أجول ببصرى بين أدباء العصر وشعرائهم ، ممن عني بقضية الأمة ، وقضية الحياة ، فوجدت الكثير واخترت من بينهم - أبا القاسم الشابي - ليكون موضوع دراستي ، لما لمسته عند الشاعر من توقد العاطفة ، ورشف العس ، ومن اهتمامه بقضية شعبه الوطنية تجلّت في العديد من قصائده ، دعا فيها قومه للاخذ بأسباب القوة ، وأن الحياة لن تنقاد لهم ، الا اذا تحررت فيهم الارادة ، وشحذوا العزم ، ثم تلك القصائد التي جاهر فيها

المستعمرين عداً ، وأنذرهم بالويل والثبور من صدوة الشعب ،
 بهذا الجانب من جوانب شعر أبي القاسم عو الذي يعجبني .
 بل قد يكون عو المحافظ الذي دفعني الى دراسته . ولا يعني
 هذا أن ابا القاسم قد تجاوز السلبه في كل قصائد ، فهناك
 قضايا وقفت عندها وناقشتها ، ولعل أهمها سياط الغضب التي
 لسع بها الشاعر شعبه ، بعد أن أيقن انهم غير مضيغي
 السمع له ، ثم ناقشت بعض النواحي السلبية في رومانسيته
 التي تجلّت في عزلته في الغاب وإيثاره الحياة فيه ، وعن
 الحياة في قلب المجتمع الذي منه نبت وفيه نما .

وحتى أقف على المؤثرات العامة التي طبعت شعر أبي
 القاسم ، كان لا بد من الوقوف ولو عينية عند بيئته العامة ، ^{ص ١٢}
 وما اعتراها من اسباب الضعف ، وما جرّه عليها المستعمر من
 ظلم . ثم وقفت عند بيئته الخاصة ، ومراحل حياته ، وما أصابه
 فيها من أحداث أثرت في سير حياته ، ونسجت انماط تفكيره ،
 فعرضت فلسفته في الصوت ، وموقفه من شعبه ، ودعوته الى التجديد ،
 وغيرها من انماط السلوك التي عاشها .

ولما كان الشعر عو الوعاء الذي ضمّنه كل هذا عرضت
 نماذج من شعره وبينت تجربته الشعرية وروايتها .
 واني لأرجو أن أكون قد وفقت ، وأتمنى أن أكون في نهجي
 قد اتسمت بقسط من الموضوعية ، وبعد عن الانحياز للشاعر أو التعامل عليه .

فخرى أحمد حسن طمليه

١٩٧٤ / ٤ / ٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

الباب الأول

- ٠١ بيئة أبي القاسم العامة
- ٠٢ بيئة أبي القاسم الخاصة
- ٠٣ طابع شخصيته

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

بيئة ابي القاسم العاصمة

تونس تحت وطأة الاحتلال الفرنسي

أ (قصة الاحتلال)

قبل ان يحتل الاستعمار الفرنسي تونس ، كانت خاضعة للحكم العثماني ، يقيم بادارتها حكامها الذين عرفوا باسم (البايات) . وكان هؤلاء هم الحكام الحقيقيون للبلاد ، ولم يكن للادولة العثمانية الا السلطة الاسمية .

قوى حكام تونس علاقاتهم بالدول الأوروبية ، وكانت تربطهم بمصالحات تجارية في نفس الوقت الذي كانت ترتبط فيه تونس بالدولة العثمانية بعلاقات ود وصداقة . فكانت تونس تقدم للدولة المساعدة في حروبها ضد اعدائها .

وحين استشرى الاستعمار الغربي ، وسيطرت فرنسا على الجزائر اخذت تحاول بكل جد احتلال تونس ، وكان ينافسها في ذلك ايطاليا وانجلترا .

حاول (البايات) ان ينمو بلادهم ، ولكنهم تورطوا في علاقاتهم المالية بالاجانب ، واستعانوا بالشركات الفرنسية ، والايطالية والانجليزية في مشروعاتهم ، وبهذا مهدوا الطريق امام المستعمرين ليحققوا اطماعهم في البلاد .

والاوضاع في تونس في هذه الفترة كانت شبيهة بتلك التي
سادت مصر في عهد الحديوي اسماعيل ، وكانت النتائج التي ترتب
عليها متماثلة في البلدين ، فقد اهتم رجال الحكم في تونس
بالجيش والاسطول ، وفي سنة ١٨٤٠ ، أنشأ (احمد باي) مدرسة
لاعداد ضباط الجيش ، واستخدم العديد من الضباط الاجانب في
سبيل ذلك ، وهذا يذكرنا باعمال محمد علي في مصر .

بالاضافة الى هذا التيار الخصري الذي حاول (البايات)
جلبه الى تونس كان جامع الزيتونة ، يقوم بدوره الثقافي العربي
الاسلامي ، وهذا يذكر بالدور الذي لعبه ويلعبه (الازهر الشريف)
في مصر في الحفاظ على التراث ، والتمسك باركان الدين الحنيف .

كما حاول (البايات) تدسين نظام الادارة المحلية والقيام
بالمشاريع الاعمارية ، الا ان ذلك وسبب سوء الاداره ، وكثرة الانفاق
على القصر الحاكم ادى الى تورط تونس ، في ديون لم تستطع
لها سدادا ، وادى ذلك الى الاشراف المالي على مقدرات تونس
عن طريق (لجنة دولية) ، وبذلك اصبح الطريق مهيدا لاحتلال
تونس .

كانت الدول الطامعة في احتلالها ثلاثا : فرنسا ، انجلترا ،
وايطاليا ، حاولت كل منها جاهدة الحصول على امتيازات تتيح لها
التحكم بتونس واحتلالها ، فقد منح الباي (محمد الصادق) الشركات
الفرنسية امتيازات السبرق والمياه والخطوط الحديدية كما ترك
الفرنسيين حرية فتح المدارس ، ومنح رعيايا فرنسا امتيازات تجارية .

أما انجلترا فكان يمثلها في تونس خلال المستينات من القرن التاسع عشر ، ممثل دبلوماسي ، استطاع ببراعته أن يجعل لدولته مركزا ممتازا في البلاد التونسية ، وأن يحول دون تقوية النفوذ الفرنسي ، وانفراد فرنسا بالتدخل في شؤون تونس ، واستطاع الممثل الدبلوماسي الانجليزي أن يحصل لبلاده على عدة امتيازات لأقامة مشروعات في تونس ، مثل امتياز سكة الحديد الجزائرية التونسية ، وامتياز تأجير واستغلال مساحات كبيرة من الأرض الزراعية وكان القادة الانجليز يشرفون على تدريب الجيش التونسي .

وأما إيطاليا المنافس الثاني لفرنسا ، كانت ترى أن تونس هي جزء من الامبراطورية الرومانية القديمة ، وانها حق لايطاليا ، كما كانوا يرددون بأن تونس امتداد طبيعي لصقلية ، واستطاع ممثلها المقيم في تونس أن يعقد معاهدة مع الحكومة التونسية منسج الايطاليين بموجبها الكثير من الامتيازات للعسل في تونس ، في المجال الصناعي والتجاري والزراعي وفي التعدين ، بالإضافة الى امتيازات اخرى تتعلق بحرية التنقل والتملك .

ولكن كيف استطاعت هذه الدول أن تتفق فيما بينها ؟؟ أو كيف استطاعت فرنسا أن تنال بنيتها في احتلال تونس؟

لم تكن المشكلة امام الدول الاستعمارية هي كيفية التغلب على الدول الصغرى ، انما المشكلة هي ارضاء شركائهم من عصاة المستعمرين ، قبل القيام بأي عمل منفرد .



لقد سعت فرنسا للحصول على موافقة إنجلترا بالاعتراف
وانتهزت فرصة احتلال بريطانيا جزيرة قبرص ، اثارته فرنسا
الموضوع في اثناء انعقاد مؤتمر الدول الكبرى في بريسن برئاسة
(بسمارك) ، فاتفق على الاعتراض إنجلترا أي تدخل فرنسي في
تونس ، مقابل عدم اعتراض فرنسا على احتلال بريطانيا لقبرص ،
واستغلت بريطانيا هذه الاتفاقية لتطلق يد لها في مصر .

ولكن اذا استطاعت فرنسا كسب موافقة إنجلترا ، فكيف استطاعت
كسب موافقة إيطاليا ؟ ظل الصراع عنيفا بين الدولتين ، وحاول
مثل كل دولة الحصول على امتيازات اكبر لدولته بمختلف الطرق
واكن فرنسا اوحشت لايطاليا ان بإمكانها ان تحتل طرابلس (ليبيا)
وان فرنسا لن تتدخل في ذلك .

(ب) مبرر الاحتلال :

والآن بعد ان استطاعت فرنسا ارضاء شريكها باقتسام الغنيمة
اصبحت تنتظر المبرر مهما كان ضعيفا لتحتل تونس ، فقد حدث
سنة ١٨٨٠ ان حاولت احدى الشركات الفرنسية شراء ضيعة كبيرة
في تونس لاستغلالها ، لكن (الباي) لم يملكها من ذلك ، فاعتبرت
فرنسا ذلك عملا عديا ضد فرنسا .

وفي ١٦ ابريل سنة ١٨٨١ ، ابلغت فرنسا (الباي) ان الجنود
الفرنسيين سيعبرون الحدود التونسية لمطاردة قبائل القبائل الجزائرية
الناشرة ، والتي التجأت الى الاراضي التونسية ، وطلبت منه ان
يتعاون معها لاقرار الامن والنظام .

وفي ٢٩ ابريل من نفس السنة عبر الجنود الفرنسيون الحدود واحتلوا (الكان) و (طبرقه) بدون مقاومة ، كما انزلت فرنسا بعض قواتها في ميناء - بنزرت - التونسي .

وبعد احتلالها تقدموا صوب العاصمة ، وهناك قدم السفير الفرنسي الى (الباي) نسخة من المعاهدة المطلوب منه التوقيع عليها ، واعطى (الباي) مهلة لبضع ساعات ليقوم بتوقيعها ، فما لبث ان وقعها ، وهكذا تمت السيطرة الفرنسية على تونس .

ج) نص الاتفاقية :

البند الاول : نص على تأييد وتجديد جميع المعاهدات السابقة بين الجمهورية الفرنسية (و باي) تونس .

البند الثاني : تحتل القوات الفرنسية المراكز التي تراها صالحة لاستتباب النظام والامن بالحدود والسواحل ، وينزل هذا الاحتلال عندما تقرر السلطاتان الفرنسية والتونسية ان الادارة المحلية قادرة على المحافظة على الامن .

البند الثالث : تتعهد فرنسا بحماية (الباي) من اي خطر يهدد ذاته أو مملكته .

البند الرابع : تضمن فرنسا تنفيذ المعاهدات المعقودة بين تونس والدول الاخرى .

البند الخامس : يمثل فرنسا في تونس وزير مقيم للاشراف على تنفيذ احكام هذه المعاهدة .

البند السادس : يقوم المثلون الدبلوماسيون لفرنسا في البلاد
الاجنبية برعاية مصالح تونس في هذه البلاد .

البند السابع : تتفق الدولتان على وضع نظام مالي للوفاء بواجبات
الدين العام .

وقد وقع هذه المعاهدة كل من (محمد الصادق)
بإلى تونس ، والجنرال (بريداد) المفوض من رئيس الجمهورية
الفرنسية . (١)

ج) تونس بين انياب الذئاب :

احتلت فرنسا تونس باسم النظام والامن كما نص عليها البند
الثاني من الاتفاقية ، ولكنها اعتدت اول ما اعتدت على النظام
الديمقراطي للبلاد ، فلم يكن من اليسير عليها ان تستحوذ على
مقاليد الحكم ، ما دامت السلطة التشريعية بيد اصحاب البلاد
الشرعيين ، فألغيت الدستور ، والمجلس التشريعي ، واصدرت
سلسلة من القوانين والتشريعات التي تمكنها من السيطرة على
البلاد ، واستنزاف مائها ، والهيمنة على مقاليد الحكم فيها ،
فاعتدت على حريات الافراد والجماعات واستهترت بحقوق التونسيين
وامتهنت كرامتهم .

(١) د . شوقي الجمل ، تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، مكتبة الانجلو

المصرية ، ١٩٧١ ، ص ٤٧٦ .

وجسريا على الخطبة التي اتبعتها فرنسا في معو الكيان التونسي وانتزاع السلطات من يد اصحاب البلاد عمدت الى شل الهيئة الوزارية ، فألغت مناصب الوزارات الوطنية التي كانت موجودة قبل الاحتلال ، ولم يبق فيها غير منصب الوزير الاكبر ، ووزير التعليم والاستشارة ، ثم اضافت اليها منصب وزير العدل سنة ١٩٢١ ، ومنصب وزير الشؤون الاجتماعية سنة ١٩٢٥ .

وليس لهذه الوزارات التي يتولاها التونسيون اية سلطة فعلية ، فهي شياكل لا روح فيها ، ووضع بجانب كل وزير تونسي مدير فرنسي بيده السلطة الحقيقية ، واما المقيم العام فيعتبر رئيس الوزراء الفعلي ، ووزير الخارجية في الوقت نفسه . أما بقية المصالح الاخرى من مالية ، ومصارف ، واشغال عامه ، وبريد واقتصاد الخ ، فيتولاها مديرون فرنسيون . (١)

وقد جرد مدراء " النواحي " من كل نفوذ ، اذ وضع بجانبهم موظفون فرنسيون ينوبون عن المقيم العام ، ويمسكهم كل سلطة . والمقيم العام بوصفه رئيسا للوزراء ، فهو الذي يصدر القرارات ويوقعها اما الوزراء التونسيون ، فليس لهم اية سلطة مهما ضوئت ، ويقتصر عملهم على حضور جلسات مجلس الوزراء الذي يعقده المقيم العام مرة كل شهر .

(١) عبد الحميد مسعود الجزائري ، المغرب العربي وكفاحه ، القاهرة ،

دار الجامعة للطبع والنشر ، دون تاريخ ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

د (اعتداء فرنسا على السلطة القضائية التونسية) :

اما اعتداء فرنسا على السلطة القضائية ، فيتجلى في انشاء محاكم فرنسية تتولى القضاء الى جانب المحاكم التونسية ، ولهذه المحاكم الفرنسية اختصاص واسع يشمل المنازعات بين الفرنسيين والاجانب أو بين هؤلاء والتونسيين ، وكذلك جميع المنازعات المتعلقة بالعقار المسجل ، وهكذا انتزعت فرنسا جزءا كبيرا من سلطاتها ، ولم يبق من اختصاصها الا ما يتعلق بالتونسيين وحدهم أو بالعقارات غير المسجلة ، هذا فضلا عن ادارة المحاكم التونسية التي يتولاها رؤساء فرنسيون .

وقد جعلت الجرائم السياسية من اختصاص المحاكم الفرنسية وحدها منذ سنة ١٩٢٦ ، فالوطنيون التونسيون الذين تتعلق بهم قضايا سياسية ، لا يحاكمون امام محاكم تونسية ، بل يختص بالنظر في امهم القضاء الاستعماري .

وهكذا خرجت هذه المحاكم عن حدود اختصاصها الطبيعي وهو تحقيق العدالة ، فأصبحت أداة تستخدم لارهاب الوطنيين والقضاء على الروح القومية .

ولقد بلغ استهتار الفرنسيين بالقضاء والحريات العامة الضرورية للأفراد الى حد ان اصدرت السلطة الفرنسية امرا بتاريخ ٦ مايو سنة ١٩٣٣ ، يخول المقيم العام حق اعتقال اي فرد لمدة سنتين قابلة للتجديد دون اية معاكمة ولو صوريه (١).

(١) عبد الحميد مسعود الجزائري ، المغرب العربي وكفاحه ، القاهرة ، دار الجامعة للطبع والنشر ، دون تاريخ ، ص ٨١ .

د) فرنسا تضع يدها على عناصر الانتاج التونسي :

٩ ان غاية الاستعمار هي الاستيلاء على ثروة البلاد المستعمرة (بضم السين) وتوجيه السياسة الاقتصادية فيها من انتاج وتداول وتوزيع لصالح دولته الاحتلال على حساب البلد المحتل ، والموصول الى هذه الغاية تضع النظم والقوانين الملتوية وتتخذها أداة لتنفيذ اغراض الاستعمار الاقتصادية .

وقد بادرت فرنسا منذ بداية الاحتلال الى وضع يدها على عناصر الانتاج والتداول . واطلقت يد الفرنسيين والاجانب في تونس مهينة لهم سبل الاقتصاب ، مما ادى الى اختلال التوازن الاقتصادي وانخفاض مستوى المعيشة بين الاهالي وقد شمل التدخل الفرنسي من هذه الناحية جميع فروع الانتاج الثلاثة : الزراعة والصناعة والتجارة .

ولاجل ان تسيطر فرنسا تمام السيطرة على الناحية الاقتصادية في البلاد وجهت همها الى الاستيلاء على الاراضي الزراعية ، فأصدرت التشريعات المختلفة ، لانتزاع الاراضي من يد التونسيين واقرار الفرنسيين بها ، فأصبح هؤلاء هم المتحكمين في حياطة البلاد الاقتصادية . وبذلك اصبح الشعب التونسي مهددا بالفقر امام هذه القوى التي تسند لها السلطة التشريعية والتنفيذية في البلاد .

و) فرنسا تعمل على محو الروح القومية ومحاربة اللغة العربية :

اتجهت سياسة فرنسا التعليمية منذ الاحتلال الى محو الروح القومية وذلك بمحاربة اللغة العربية ، والاستعاضة عنها باللغة

الفرنسية ، وتطبيق برامج خاصة لاجراء الناشئة عن قوميتها
العربية ، وقطع الصلة بينها وبين ماضيها وتاريخها لتتمكن من
ادماجها في العنصر الفرنسي .

كانت اللغة العربية هي لغة التعليم قبل الاحتلال ، وكانت
جامعة الزيتونة وغيرها من الكتاتيب والزوايا التي تشتمل على كثير
من التلاميذ الذين يتلقون الثقافة العربية على الطريقة القديمة ،
الى جانب مدرسة حديثة كبرى يتلقى فيها الطلاب العلم العصرية
واللغات الاجنبية .

وفي سنة ١٨٨٢ أسس الفرنسيون ادارة العلوم والمعارف ، ووضعوا
برنامجا لانشاء مدارس ابتدائية فرنسية للاوروبيين والمغرب ، على
قرار المدارس الموجودة في فرنسا نفسها ، ولم يكن للغة العربية
اي وجود في هذه المدارس ، وكانت نظرية مدير العلوم والمعارف
وقتذاك - وهو موظف فرنسي - ان ينشئ شبكة من المدارس في
كل المدن يؤمها الاطفال سواء كانوا تونسيين أو من الجاليات
الاجنبية الاخرى لينشأوا نساء فرنسيه صرفة . (١)

وبخلاصة القول ، ان السلطة الفرنسية اتجهت في سياستها
التعليمية الى محاربة اللغة العربية ، من جهة ، وفي سبيل
فرنسة الناشئة من جهة اخرى .

(١) عبد السيد مسعود الجزائري ، المغرب العربي وكفاحه ، ص ٨٤ .

(و) فرنسا تهمل الناحية الصحية في القطر التونسي :

ولم تقم السلطة الفرنسية بواجبها من الناحية الصحية ، بل أهملته ككل الأعمال ولم تخصص في الميزانية التونسية من الاعتمادات مما يكفي القيام بشئون الصحة ، ويتضح ذلك من ضآلة عدد المستشفيات وعدد الاسرة بها ، وانعدام الاجهزة الطبية اللازمة .

ولم تكن السلطة الفرنسية تعير الاسعاف العام اي اهتمام ، فوسائل مقاومة الامراض المعدية لا تكاد تذكر . واكثر الامراض فتكا كان مرض السّل ومع ذلك لم تكن توجد مصحة واحدة لمعالجة هذا المرض .

كما ان حماية الطفولة كانت معدومة ، ولم تتعهد السلطة الفرنسية الشيوخ والعجزة من التونسيين ، بينما تجددها قد خصصت للفرنسيين مؤسسات متعددة تنفق عليها من الميزانية التونسية .

وكثرت نسبة الوفيات في تونس بسبب اهمال السلطة الفرنسية لشئون الصحة ، وخاصة مقاومة الامراض البوائية ، والامراض المعدية وهو راجع كذلك الى الفقر ، وقلة التغذية التي يعانيها الشعب من جراء سياسة فرنسا الاستعمارية .

في هذا الوسط ، وفي لجنة هذه المعاناة عاثر الشعب التونسي ، وعاش شاعره ابو القاسم الشابي ، يجاهر الاستعمار عداءه ، ويدعو الشعب الى الثورة ، يدعوه الى الحياة عن طريق الايمان بالحياة والايمان بالحق ، فايمن الشعوب المهضومة الحقوق

كفيل ان يرد لها حقوقها ، واتحاد الامم المغلوبة على امرها
قمين ان يرد الى الشعوب حريتها ، وما بعد الليل البهيم ،
والظلام ، سالك الا فجر المشرق والنهار الساطع .

ان الجرائم التي ارتكبتها المستعمر لا يمكن ان يقبلها كل من
يشعر بكرامة انسانيه ، فنهض الشعب التونسي وقام الاحتفال
وقارعه على صوت شاعره .

اذا الشعب يوما اراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد لليل ان ينجلي ولا بد للقيد ان ينكسر

ففي سنة ١٩٢٠ انشأت الشبيبة التونسية - حزب الدستور -
وكان برنامجها يهدف الى اقامة نظام ديمقراطي ، وتوطيد الحكم
في القطر التونسي على اساس دستوري . اتخذت فرنسا مسن
التدابير ما يكفي لقمع كل حركة فاعتقلت عام ١٩٢٥ من الزعماء
التونسيين ما اعتقلت ، ونفت من نفت ، وأرغقت الشعب بضروب
عجيبة من الاقفار والاذلال .

وفي عام ١٩٣٠ ، ضاعفت فرنسا ضغطها على الشعب التونسي
فتجمع الشعب التونسي ، وآمن بأهمية تضافر جهوده اذا اراد
قهر المستعمر فأنشأ - حزب - الدستور الجديد - الذي ظهر
على مسرح السياسة التونسية عام ١٩٣٤ أي في السنة التي قضى
بها ابو القاسم نحيبه .

يتضح من هذا العرض التاريخي ان تونس لم تعرف الراحة ولا الاستقرار ولا الرخاء منذ منتصف القرن الماضي ، ولكن الحركة الوطنية التونسية بدأت تظهر بوضوح بعد عام ١٩٢٠ حين اسست الشبيبة التونسية حزب - الدستور - واذا عرفنا ان وهي ابي القاسم انما تفتح بين عامي ١٩٢٥ ، ١٩٣٢ ، اي في عهد كانت تجتاز فيه بلاده أمر وأقصى مرحله من مراحل تاريخها الحديث ، وفي هذه المرحلة بدأ الشباب التونسي يتصدى / للغزو وينازله ، ذلك هو الجو المكفهر الذي احساط بشاعرنسا ، وتلك هي الاوضاع الاجتماعية القاسية المؤلمة التي نما في وسطها احساسه . فكان لا بد ان تحدث فيه اعماق الاثر ، وهو الشاعر المرحف الحسن ، المتوقد المشاعر ، وكان لا بد ان يؤثر فيها ، فقال من الشعر ما ساعد على تأجيج الثورة ، وقال من الشعر عائنا شعبه على الصمود والتحدى ، بل ولم يقف به الحد الى هنا بل ساهم عمليا في مظاهرات الاحتجاج التي كان يقودها ضد الاحتلال .

* * *

الفصل الثاني

بيئة أبي القاسم الخاصة

١ - مولده ونشأته :

ولد أبو القاسم بن محمد بن أبي قاسم بن إبراهيم الشابي في الثالث من صفر سنة ألف وثلاثمائة وسبع وعشرين هجرية ، الثالث من نيسان (ابريل) سنة ألف وتسعمائة وتسع ميلادية . في قرية الشابيية من أعمال توزر من الجنوب التونسي ، وهذه المنطقة تدعى بلاد الجريد - ومعناها بلاد النخيل - " ومنطقة الجريد في الجنوب التونسي عبارة عن أربع واحات هي : توزر ، نفثا ، المديان ، والحمه ، وكلها تقع في البرزخ الذي يفصل السبختين الكبيرتين : الجريد وفرسه ، على تخوم الصحراء وقفارها المترامية ، وهذه الواحات الأربع تلفت الانظار ، وتستحوذ الاثدة لما هي عليه من سعة ، وما تتمتع به قراها الكبيرة من اهمية اذ ان مياهها غزيرة وافرة ، ونباتاتها واشجارها باسقة رائحة ، ومواقعها جميلة وأخاذة " (١)

نشأ أبو القاسم في بيت علم من اسرة محافظة ، فأبوه محمد الشابي درس على الشيخ محمد عبده ، واجيز من الازهر الشريف وولي القضاء ببعض جهات البلاد التونسية ، وكانت اولس البلاد التي عمل بها (سليانه) كان ذلك بتاريخ ١١ ربيع أول ١٣٢٨ هـ ، ٢٢ آذار (مارس) ١٩١٠ م بعد ولادة أبي القاسم بسنة تقريبا ، ثم عين في قفصه في ٢١ رمضان

(١) عبد اللطيف شراره ، الشابي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٧٣ ، ص ٨ .

١٣٢٩ هـ ، ١٤ سبتمبر ١٩١١ ، ثم انتقل الى قابس في ١٥ صفر ١٣٣٢ هـ ،
ثم انتقل بعد ذلك الى جبال تالة في ٢٢ رجب ١٣٣٥ . وكان
ابو القاسم يتنقل مع والده في كل المناطق التي عمل بها (١) ، وبهذا
يكون ابو القاسم قد طوَّف في مختلف انحاء البلاد التونسية ، وعاش حياة
شعبه ، واطلع عليها في ادنى البلاد واقصاها ، وكان لذلك كله اثر
على حياة ابي القاسم ، وعلى صنع اتجاهااته ، فمن ضيق اختلاطه بأبناء
شعبه في نواحي البلاد المختلفة ، اطلع على كل المآسي التي كان
يحياها هذا الشعب ، وشاهد مظاهر التخلف والبؤس التي ماناها ابناؤه
الامة .

٢ - هافته :

درس الشاعر في اول مراحل حياته في الكتاتيب ، دخلها وهو
في الخامسة من عمره ، وحفظ القرآن بكامله وهو في التاسعة من عمره
وتولى والده تثقيفه وتدرسه حتى بلغ الحادية عشرة .

وفي بداية الثانية عشرة من عمره ، في ١١/١٠/١٩٢٠ التحق
بكلية الزيتونة واستمر يدرس بها العلوم الدينية واللغوية حتى تخرج فيها
سنة ١٩٢٨ ، وبذلك دخل ابو القاسم حين دخل جامع الزيتونة خضم
الحياة الواسع في عاصمة بلاده ، وتفتح بالحرية المطلقة ، فهو يختلف
الى دروس الجامع ، حتى اذا كان وقت الفراغ امضى الساعات الطوال
بمكتبة الخلدونية ، او بمكتبة قدماء الصادقية ، وفي العاصمة كتب أول قصيدة
له ، ويقول اخوه الامين الشابي : أن أول قصيدة قالها الشابي كانت

(١) عامر غديرة ، محاولة جعل اطار لترجمة الشابي ، مجلة الفكر التونسية س ٥ ، ع ٣
ص ١٣ - ٢٥ ، ورد في كتاب دراسات عن الشابي ، اعداد ابو القاسم محمد كرو
ص ٤٢ - ٥٥ .
٢٣ / ٠٠٠

في الخامس عشر من ذى الحجة ١٣٤٢ ، ١٨ يوليو ١٩٢٤ ، فاذا علمنا ان الشابي ولد في عام ١٩٠٩ يكون الشابي قد بدأ ينظم الشعر وهو في الخامسة عشرة من العمر .

وكانت أولى قراءاته الادبية ما انتجه أدباء المهجر من امثال (جبران ، ونميه ، وأبي ماضي) . وكف ايضا على دراسة الانتاج الادبي القديم في عيون كتبه ، كالأفاني ، وصبح الاعشى ، ونفس الطيب ، والكمال ، والامالي ، والعمدة ، والمثل السائر ، والصناعتين وغيرها .

وفي سنة ١٩٢٨ حاز ابو القاسم الشابي على شهادة التطويق التونسية ، وبعد ما انتسب الى مدرسة الحقوق التونسية ، فتخرج منها سنة ١٩٣٠ .

٣ - ابو القاسم الشابي كان يجهل اللغات الاجنبية :

كان ابو القاسم الشابي يجهل اللغات الاجنبية ، وتصذر عليه قراءتها بلغاتها الاصلية فلجأ الى المترجمات ، فقرأ تاريخ الادب الغربية واطلع على فنونها واكثر من قراءة "لامرتين" و "جوته" .

وقد اصبح المامه بالادبين الفرنسي والانجليزى واسعا فصار يتحدث فيهما كما يتحدث من نال اكبر الشهادات في الادب الغربية . (١)

ويؤكد هذه الحقيقة الدكتور محمد مندور حين يقول "ومن الغريب انني عندما طالعت بمضرقصائد الشابي ، ومقالاته النقدية ، كنت اجزم

(١) ابراهيم ابو رقعة ، حياة امي القاسم الشابي ، مقال ورد في كتاب دراسات عن الشابي ، اعداد ابو القاسم محمد كرو ، ص ٢٢ .

بأن هذا الشاعر ، قد كان يجيد لغة اجنبية تمكنه ، لا من الالمام
بآداب الغرب ، فحسب ، بل من تذوقه لتلك الاداب واحساسه بها ، وتمثله
لها ، ثم عدت الى ما كتب عن تاريخ حياته ، فأخذتني الدهشة كل
الدهشة عندما علمت انه لم يكن يعرف اية لغة اجنبية ، وانه تخرج من
جامع (الزيتونه) بتونس ، ثم التحق بكلية الحقوق التونسية ، وتخرج منها
سنة ١٩٣٠ ، ولكنه لم يتعلم لغة اجنبية ، وعندئذ ادركت اننا امام احدى
تلك المبقرات التي لا يستطيع البشر لها تفسيراً ، لانها هبة من الله . (١)

٤ - كان ابو القاسم محبا للمطالعة :

يقول الاستاذ ابراهيم ابو رقعة ، وهو واحد من عرف الشابي
كان عام ألف وتسعمائة وثلاثة وعشرين ، وكنت فيه كثير التردد على مكتبة
الخلدونية مساءً غالب كل يوم ، وكنا معشر الرفاق بالمكتبة نفرا بعد فوق
الاصابع ، واعني بالرفاق الذين ينذر تخلفهم ، وكان من بينهم فتى يدخل
عليها بخطى سريعة تدل على الحيوية والنشاط ، مجهول من الجميع ،
يأخذ كرسى بقاعة المطالعة ، بعد ان يحيي المطالعين بصوت خافت لا
يكاد يسمعه القريب اليه .

ثم يقف بجانبه قديم المكتبة ليحضر له ما يأمر بطلبه ، واذا
المطلوب مجلدات ضخام وكتب تحسار في حملها وتقليب اوراقها بسداه
الصفيرتان ، ثم ينكب على دراستها فيرحتفل بمن حوله ، ولا ينصرف
بصره من مطالعة كتاب الا الى غيره ، فكان وقتئذ لسان حال المطالعين

(١) د . محمد مندور ، الشابي روح طائفة ، مجلة المجلة ، القاهرة ع ٦ ،
يوليو ١٩٥٢ . ورد في كتاب دراسات عن الشابي ، اعداد ابو القاسم
كرو ، ص ٩٦ . ٢٥ / ٠٠٠

يقول : مالك وهاته الكتب ، وأين لشاب مثلك ان يفهم ما ترمي اليه وما تحويه اسفارها الضخام ؟ وكان البعض الاخر ينظر اليه نظرة المشفق الأسن على ضياع وقت هذا الفتى الذى لا يزال الشباب امثاله بالانهج والطرقات ، وعكذا كان ذلك الفتى شغل المطالعين ، فهم يتحدثون عليه عمسا ، ولا يخل احد هم ان يشير اليه اشارة الهازء الساخر . (١)

٥ - مراحل حياته الثقافية :

ويستمر الاستاذ ابراهيم ابو رقمة في حديثه عن الشابي فيقول "حدثني ابو القاسم عن نفسه ان الطور الاول الذى قطعه من حياته الفكرية هو التنسك والانقطاع الى العبادة ، وانه كان يقضي اليوم أو اليومين لا يخرج من مصبده ، وربما مكث الزمن الطويل بدون طعام أو شراب تمذيها للنفس ، وكمرها لهاته الدار ، وكان يؤمن أن يأتيه في وحدته طائف يخبره بالغيب .

ثم نارق ابو القاسم هذا الطور من حياته الفكرية بمناسبة وروده على الجامع الاعظم ، وفي يقيني انه بقي اثر بنفسه من تلك التعليقات التي قررها حجة الاسلام الغزالي ، والشمس البتريزي ، وحيي الدين بن العربي ، ثم تغيرت عقلية ابي القاسم بعد اطلاعه على الادب المعاصر الذى اتجه ادباء مصر المعاصرين ، واطلاعه على ادب المهجر ، وتأثره كثيرا بزعميم المدرسة المهجرية جبران خليل جبران .

(١) ابراهيم ابو رقمة ، حياة ابي القاسم الشابي ، مقال ورد في كتاب دراسات عن

الشابي اعداد ابو القاسم محمد كرو ، ص ٧٢ . ٢٦ / ٠٠٠

وفي طوره الثالث ، وهو طور النضوج والاستقلال في الرأي والتفكير ، طور الاختراع في الادب والابتكار ، طالع ابو القاسم من كتب الاقدمين آلاف المجلدات وطالع كل ما وصلت اليه يده من كتب المتأخرين ، وله شغل خاص بمطالعة ما يترجمه ادباء المشرق من كتب الغرب ، من مثل ترجمات العقاد وهيكل والمازني .

٦ - تزعّم الحركة الطلابية المنادية بالاصلاح :

كان ابو القاسم الشابي أول رئيس للجنة الطلبة التي نادت بتطوير أساليب التدريس في جامع الزيتونة ، وهو الذي وضع برنامج أول مسهل للطلبة بالاصلاح ، أوضحه في الجلسة الاولى للجنة الطلابية التي انعقدت في ٥ رجب سنة ١٣٤٧ هـ ، وحين القي القبض على عدد من الطلبة اظهر ابو القاسم ثباتا وشجاعة متناهية . (١)

٧ - حبّه :

اختلف الدارسون للشابي في حقيقة حبه ، فالاستاذ عامر غديرة يؤكد هذا الحب ، وأن الشابي عرفه في رأس الجبل حيث كان يحمل ابوه ، (٢) نجد ان الاستاذ محمد الحلوي ينكر هذا الحب ، ويحاول تحليل ما قاله الشابي فيه من شمر ونشر ، بأنه تعبير لجنس المرأة وجمالها وفتنتها ، لا افتتان وحب لاسراء بالذات ولكن الاستاذ ابو القاسم كرو يؤكد هذا الحب ويقول : ورغم اننا لم نعرف بعد وقد لا نعرف

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته - شمره ، منشورات دار مكتبة الحياة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٠ ، ص ٥٧ ، ٥٨

(٢) عامر غديرة ، محاولة جعل اطار لترجمة الشابي ، مجلة الفكر التونسية ص ٥ ، ع ٣ ، ص ١٣ - ٢٥ ، ورد في كتاب دراسات عن الشابي ، اعداد ابو القاسم محمد كرو ، دار المغرب العربي ، تونس ، دون تاريخ ، ص ٤٢ - ٥٠ . ٢٧ / ٠٠٠

ابدا حقيقة هذه المرأة التي احبها ، الا انني اجزم بأن الشابي احب
فتاة معينة ، وانه شغف بهذا الحب الى درجة العبادة والتقدس . (١)

أما الاستاذ ابو القاسم محمد بدرى ، فيرى ان ابا القاسم قد
احب حبا عذريا وان هذا الحب كان اعظم عزاء وأعظم عوض لكل ما فقده
من حياته المليئة بالآلام والسقام . (٢)

ومهما يكن من امر فان في شعر الشابي ما يؤكد هذا الحب
ويعزز ، لانه شعر لا يد وان يكون صدر عن قلب عانى الحب فخير
لذته ، وعانى من قوته ، مما سنعرض له حين نتكلم عن الشعر الفزل
عند ابي القاسم الشابي .

٨ - زواجه :

يبدو ان ابا القاسم لم يوفق في الزواج ممن يحب ، فقد وردت
في اشعار ابي القاسم قصائد وأبيات تدل عليه موت من احب ، وان موتها
قد عدم قلبه وحطم نفسه ، اسمع اليه يقول :

بالامس قد كانت حياتي كالسماء الياسمه
واليوم قد امست كاعماق الكهوف الواجمه
قد كان لي ما بين احلامي الجميلة جدول

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي ، حياته - شعره ، منشورات دار مكتبة الحياة ،
الطبعة الثالثة ، ١٩٦٠ ، ص ١١٢ - ١١٤ .

(٢) ابو القاسم محمد بدرى ، الشاعران المتشابهان ، الشابي والتيجاني ، دار
المصيارف بصر ، ١٩٥٩ ، ص ٥٧ . ٢٨ / ٠٠٠

يجرى به ماء المحبة ظاهرا يتلسل
هو جدول قد فجرت ينموه في مهجستي
أجفان فاتنة أرتينهما الحياة لشقوتي
أجفان فاتنة تراءت لي على فجر الشباب
كمروسة من غايات الشعر في شفق السحاب
ثم اختفت خلف السماء وراء نهاتيك الغيم
نحو السماء وها أنا في الأرض تمثال الشجون (١)

وبعد وان هذه الصدمة بوفاة محبوبته ، قد عجبت بأهله فنهضوا الى
زواجه ، فتزوج قبل ان ينهي دراسته العاليه ، علّه ينصرف عن اوهامه
وتأملاته الحزينه وقبل بالامر ، ولكن زواجه لم يوفق لانه لم يجد في
زوجته تلك الصورة الشعرية الرائعة التي كان يرسمها للمرأة في اشعاره ،
ويتغنى بها في قصائده . وترك الشابي بعد موته طفلين .

٩ - وفاة والده وما سببت له من احزان :

كان ابو القاسم الشابي شديد الحب لايه ، ذلك الاب الذي
طالما حنا على ابنه ، واعتنى به ، واهتم بتربيته ، وصحبه الى كل
مكان عمل به ، ازداد تعلق ابي القاسم بالده ، وأصبح ينشد فيه المثل
الاعلى ، ولكن المرض احاق به في صيف عام ١٩٢٩ ، ومع ان الشابي كان
قد بلغ سن الممر العشرين ، الا ان فزعته على والده كان شديدا ،
صحب ابو القاسم والده الى مقطر رأسه ، وسهر عليه في ساعات مرضه
العصيب ، واحتضر الاب ، واسترعه الموت من قلب أسرته ، فتألم ابو القاسم

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٢٠ .

وكان المصاعيد مما يتألم الناس، ولم يتحدث عن شيء بألم وحسرة
مؤثرة قائمة، كما تحدث عن لحظات أبيه الأخيرة، يظهر ذلك
بوضوح في رسالة بعث بها إلى الأستاذ محمد الحلوي صديقه،
يقول :

"أخي الفاضل :

تحية وشكرا

وبعد فإني أود أن أحدثك وأناجيك، وأصبر لأن أرافقك وأماشيك
في تلك السبل التي جال فيها ببراعك ولكن بماذا ؟ أبهذا القلب
الذي كسرتة صخور الحياة ؟ أم بهذه النفس التي مزقتها اعاصير
الوجود ؟ أم بهذا الفكر الواهن المخبول ؟ أم بهذا الوجدان التائه
في شطاب الغد الفاضل المريب ؟

آه ! أيها الاخ ان الحياة لأعول من ان تحتل على مثل هذه
الحال السيئة الاليمة وان خضم الزمان لأرهب من ان يتقحمه المرء، وهو
كما اراه جبار في تمرده قوى في جبروته وطفيانه .

ها هي الاقدار العتية تعبت بنا نحن البشر الضفاف، وترميننا
بما لا نستطيع احتماله ولا نملك اعتزاله، واتى لنا ذلك، ونحن اهداف
اللاجج الثائرة، واعشاب السيول الهادرة .

لقد ضقت ذرعا بالحياة يا صاحبي - ولا أخالني ان ظلت الحياة
على ما هي عليه اليوم - الا ذاهبا إلى القبر أو في سبيل الجنون .

إنني أحاول ان اخط اليك ما تصه نفسي من مرارة الوجداع
وهمم الزمن الجائر، فلا أستطيع الا مثل هذه الكلمات المقطعة التي
لا تكاد تبين عما أكابد من فصص لا أذكر ان قد مرت علي فيما

سلف من عمري أيام أنكد من هذه الأيام أو أشد .

ففي الصباح أجلس إلى أبي الذي انهكه المرض وأضعه وأرضه
الالم وأذواه ، وطرفني إلى وجهه الشاحب العليل ، وإلى جفنه الذاعل
الذي أذبله الألم ، وأذوته الحمى وإلى جسده المتهدم الواهن .
وسمعتني إلى نفسه المتقطع وتأوهات المتتابع ، ومهدى به ذلك الرجل
الجلبد ، فما أراه كذلك إلا وتعلأ صدرى الزفرات ، وتعلأ عيني المبررات ،
وتنطلق من قلبي المثلج وصدرى المكلم أنات القهر ودعوات الرجاء
إلى الله الحياة والموت وبساط النور والظلمات أن يشفي هذا الاب
الواهي الطريح ، وأن يشفق على صبيته الصغار الذين ما زالوا واقفين
بباب الحياة .

ويستمر أبو القاسم مخاطبا صديقه مينا شقاءه وعناءه فيقول :
" آه ! ربّ اشقيتني ، وما أشقيت أحدا من عبيدك ، ربّ فذبتني وأنا
عبدك الذي لم يجدف باسمك ولا كفر بنعمائك ، ربّ رحماك فان عب
القدر عليّ شديد ، ودد ممي يا صديقي دعوات إلى الله ، وصل
بقلبك الطاهر مع هذا القلب الكبير إلى ذلك الذي يسمع خفقات
الارواح لمّله يلبي دعواتنا التي نرفعها إليه .

ويصل الألم بأبي القاسم فيحقر الحياة ويحقر نفسه ويستغفرها
فيقول : " ان هذه النفس يا صاحبي لأهون والله من ذره وصل في
أكف الرياح ، وان هذه النفس لأقرب من تلك البعوضه المفتطبه
بطنينها بين المزابل . وان هذه النفس لاشقى بما وضع الله فيها
من شعور من كل انباء الحياه . ان الذره من الرمل لتصبث بها ما
شاءت الرياح ثم تقرأ المصافه وتسكن فاذا بها ذرة هادئه ساكنه بين

ذرات الرمال تحلم أحلامها الأبدية الخرساء ، وتوقد بعيداً عن ضجيج
الدعور وضوضائها ، وأنات الحياة وأرزائها ، أما هذه النفس فانها
طائر معذب مطعون بسكب دماء فوق الصخور القاسية ، وبين أشواك
السييل دون ان يظفر بعشه الذي عشت به الماصفه ، ولا يسره الذي
شرّده النصور .

ويشتد الانفصال بالشابي ، فاذا هو حائر ، يبحث عن سر
الحياه ، ويعلم انه سيدأب في السير لمّله يهتدي أو يدرك حينه
يقول :

" ها أنا مدلج في سبيل الحياة الاقتم ، وما هي الاشباح
الرهيبه تتعقبني وتسمني أناشيد السخره والازدراء ، ولكني سأظل
سائرا ومنظرا صباح الحياة . سأظل مرددا على هامه الغابات
والكهوف أغنية الحيره والحنين الى أن يبدو الصبح ، أو يسكتني صراخ
القبور :

يا بني أمي ، ترى ابن الصباح ؟ قد تولّى الصمر ، والفجر بعيد
وطنى الوادى بمشهب النواح واقضت انشودة الفصل السعيد
أين نايى هل تراسته الرياح ؟ أين غايى ؟ أين محراب السجود ؟
يا بنات الليل ، قد غاض الصداح منذ طاشت نشوة العيش الحميد
يا بني أمي ، ترى ابن الصباح ؟ أورا البحر ؟ أم خلف الوجود
يا بني أمي ترى ابن الصباح ؟

سأظل سائرا في سبيلي ، وسأظل نائرا في هامه الحقول
الجرداء الصاربه بذور الأسى الى ان يبدو والقصر الجميل ، فتفتتح
الأكمام عن ورود جميلة ضاحكه ، وينفرد الليل وراء الزهور ، سأظل
سائرا في سبيلي متغنيا بهاته الاوجاع والدموع وان كنت أعلم .

ان الدهور البواكي غنية عن دموعي

وان قلب الحياة تخين بالجراح وان راحة الليل ملأى بالدموع الدائمة

ويستمر ابو القاسم في هذه الرسالة التي تبين فلسفة الحياة
عنده ، وفلسفة الموت ، فاذا به يسير في شعاب الحزن ، ويعمش
في كهوف الشقاء ، ولكنه مع ذلك لا زال ينتظر خيط شعاع ينبثه
بحقيقة الحياة ، وماهية الموت ،

ويعتذر ابو القاسم لصديقه الذي أدمى فؤاده برسالته تلك
التي يعتمر منها الهم ، فيقول :

"غفوا يا صديقي ، فقد آلتك وعصرت نفسك عصرا ، فقد كان
يبدو ان أسرك وان اسمك اغاني السهر بدل الحان الالم ، ولكن
ماذا أصنع ؟ والمرض لا ينطق بغير الأنين ، والجرح لا يرشح بغير
الدماء ، ان الظلم لا تلد الضياء . وان الحزون لا يتكلم بغير احزانه
انت صديقي ، وليس لي ان اعدك صديقي حقا الا اذا قاسمتني كسوس
الملقم ، وصير الحنظل ، كما سقيتني رحيق العره ومسلسبيل الفردوس .

رغبت الي يا صديقي ان أتلو تحياتك وصلوات قلبك على "أصداء
الجيل ، وأسرار الغاب والى كل شحور يغني ، وكل يائس ينتحب "
وذلك عهدى في تحيات الشعراء يا صاحبي فانها لتكون عنده جميلة
كأرواحهم الملهمة النبيلة ولكني يا صديقي لم ابلغ تحياتك الى نفسي
القرحة الباكية لانها هي "البائس الذي ينتحب " في سكون الليل ،
كلما مكن الى نفسه وتفكر في الحياء . أما الغاب وأسواره والجيل

وأصدائه والشحور وألحانه العذبة الحبيبة ، فان عهدى بها بعيد ،
وان تلك السعادة الالهية الطاهرة وتلك المباح والمناظر والاغاني لا
تنعم بها الا الابصار " الطافحة بالاشعة المكحولة بالبسات ، أمسا
الاجفان التي قرّحها الدمع واذواها الالم فانها قصبة عن تلك المناظر
منفيه في سحون الحياة " .

لقد تركت وفاة والده أثرا عميقا في نفسه ، بل لعل هذه
الوفاة كانت من أبرز الاحداث في حياته ، فهي التي طبعته نفسه
بالحزن ، وأحلت في قلبه التشاؤم واليأس مما صيغ غالب شعره ، بصباغ
قاتم ، لا يكاد يذكر لذة من لذات الحياة الا ويستدرك ، حين يمرى
شيخ الموت ماثلا أمامه ، فاذا به يمتنذر عما سلف ، ويلوّن صوره
بألوان المذاب ، فأنت تحس في كل قصيدة قالها سرارة العيش " .

ولعل مما كان يساعد على اشارة لواعج الحزن هذه ، اخوته
الصغار الذين خلفهم والده وراءه ، فتحمل أعباء الصائمه ، ولم تكن
له تجربة في الحياة قبل ذلك ، ونظم ابو القاسم قصيدة في رثاء
أبيه كلها نواح ونديب قال :

يا موت ! قد عزقت صدرى ، وقصمت بالارزاء ظهرى
ورميتني من حائق ، وسخوت مني أى سبيخ
فلبثت مريض الفؤاد أجرا أجنحتي بدمر
وقسوت اذ أقيتني في الكون أذرع كبل وممر
وفجمتني فيمن أحب ، ومن اليه أبث سرى
وأعده فجرى الجيل ، اذا ادلهم على دهرى

وأعدّه وردى ، ومزمزاري ، وكاساتي وخمري
وأعدّه غايي ، ومحرايي ، وأغنياتي وفجـجـري
ورزأتني في عمدتي ، ومشورتني في كل أمر
وهدمت صرحا ، لا ألوذ بغيره وهتكيت سترى

ويستمر أبو القاسم مخاطبا الموت ومحاورا ، كأنه وحش يجثم
أسامه ، قد أبدى أنيابه .

يا موت ! ماذا تعني مني وقد مزقت صدري ؟
ماذا تنود وانت قد سوّدت بالاحزان فـكـري
وتركتني في الكائنات أثن ، منفردا باصـري
وأجوب صحراء الحياة أقول " أين تراه قبري ؟ "
ماذا تنود من الشقي بـمـيشه النكد الضـر
ان كنت تطلبني فهات الكأس ، أشربها بصـبر
أو كنت ترقبني فهات السم ، أرشقه بنحـري
خذني اليك ، فقد تبخر في فضاء الهم عـري
وتهدلت أضغان أهامي ، بلا شمر وزهـر
خذني اليك فقد ظئت لكأسك الكدر الأمـر
خذني فقد أصبحت أرقب في فضاءك الجون فـجـري
خذني فما أشقى الذي يقضي الحياة بمثل أمرى (١)

ألا ترى كيف يكي الشاعر والده ، لقد أودت الاحزان بأعصابه
ألا تراه منهارا ، انه يكي بكاء الاطفال ، وكأنني بالشاعر قد نسي

(١) أبو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٩٥ .

أنه ابن عشرين ربيما ، شاب في ريعان العمر ، يجب أن لا يفزع
من الصيبة بمثل ما فزع وأن عليه ان ينهض بالصبة ، وأن يرضى بما
قسمه الله . ولكن انه الشاعر المرهف الحسّ .

١٠ - الشابي يرفض العمل بالوظائف الحكومية :

آثر الشابي ان يعيش ما تدره أملاك الاسره مما لا يكفل لهم
الاكفاف العيش ، ناجيا بنفسه من اسار الوظيفة ، التي قد تلجم فاه
بقيودها ، وتقتل حريته بروتينها . فلم يلج باب الارتساق من
المناصب الحكومية ، ورضي بحياة بسيطة على رأس أسرته بتوزر .

كما رفض الشابي ان يعيش بشعره ، أو يتكسب به ، لان الشعر
في رأيه قمة الشعور ، وذروة العاطفة ، مما ينزعه عن ولو ج مواطن
الشبهة والريبه .

استمع اليه يقول :

به رضا أمير	لا أنظم الشعر أرجو
تهدي لرب السرير	بمدحاة أو رشاش
ان يرتضيه ضميري (١)	حبي اذا قلت شعرا

ويقول :

به اقتنصا نوال	لا أقرض الشعر أبغبي
جماله ذا جلال	الشعر ان لم يكن في
يسمى بواي الضلال	فانما هو طيف

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٣٢ .

يقضي الحياة طريداً في ذلّة واعتزال
ما الشعر الا فضاءً فيه يرف خيالي

١١ - مرضه ووفاته :

اختلف كثير من الدارسين لحياة ابي القاسم في مرضه ، فأجمع الكثير منهم على انه توفي بمذات الرئة . الا ان الاستاذ - ابو القاسم محمد كرو - يثبت انه قد مات بداء تضخم القلب ، واعتمد في ذلك على وثائق ونصوص تركها الشابي مكتوبة بقلمه ، وعلى بحث قام به محمد عامر غديره مستندا فيه على مجموعة من الاسانيد والوثائق المائدة للشابي وأسرته . وعلى اتصالات مع الدكتور محمود الماطري طبيب الشابي الخاص ، الذي أفاد ان الشابي كان يألم من " ضيق الانبئة القلبية " أي ان دوران دمه الرئوي لم يكن كافيا ، وهذا المرض يجعل سيلان الدم في الشرايين من الانبئة اليسرى نحو البطينية اليسرى سيلانا صعبا .

كان الشابي ضعيف البنية ، نشأ متقلبا وربما أصابه هذا الضيق وهو لم يزل صغير السن ، ضاق قلبه وضاقته رثته ، فلم يمد يتنفس تنفسا عاديا ، ولكن أهم ما في المرض ، انه يغير نفسية المريض ، وهو أمر عام جدا اذا كان المريض كاتبيا أو أدبيا أو رساما أو موسيقيا أي اذا كان فنانا حقيقيا .

منع الاطباء أبل القاسم من ممارسة الجري واللعب بالكرة ومن السباحة ، وقد ترك ذلك ألم نفسية عانها الشاعر كلما هم باللعب مع اصدقائه ، وكثيرا ما كان يقول معتذرا عن دعوة لمثل هذا العمل

" هكذا أمر الطبيب "

وكثيرا ما كتب الشابي مذكرات يصور فيها حاله ، وما ينتابيه
من ألم وشقاء .

" أشعر اليم بفتور في بدني ، وتوسعك في مزاجي ، لا أدري
مأتاه ، وأحس بكآبة عميقة تستحوذ على مشاعري ، وتقيض علي قلبي ،
وتجملني أكره الكتب والاسفار ، والمحابر والأقلام .

لا أريد ان اذكر اكثر مما ذكرت لاني أرى النوم يغالبني ، والاعياء
يدافعني الى النعاس " .

وقال في إحدى مذكراته :

" اعتزمت الذهاب الى حديقة " البلفيدير " ، قال احدهم :
انها مقهاة بعيدة عن صخب المدينة وضوضائها ، قريبة من البرية ،
مكتظة بالاشجار الجبلية والمشاهد المسببة ، فاستهوانني الوصف ورافقهم
وما هي الا ساعة حتى كنا نسير بين المزارع التي تداعب الشمس
اعشابها ، وكانت مشاهد كثيرة متباينة . هنا صبية يلعبون بين
الحقول ، وهناك طائفة من الشبان الزيتوني والمدري يرتاضون في الهواء
الطلق ، والسهل الجميل ، ومن لي بأن اكون مثلهم ؟

ولكن أنس لي ذلك ، والطبيب يحذر علي ذلك ، لان قلبي
ضعفا آه ! يا قلبي ! أنت مبعث آلامي ، وستودع أحزاني ، وأنت
ظلمة أسرى التي تطفئ على حياتي المعنوية والخارجية .

وأثبت الاستاذ كروني كتابه عن الشابي ، رسالة من الشابي
الى صديقه محمد الحليوي ، وفيها يتحدث عن مرض قلبه حديثا ينفي
نهادها جميع المزاعم والظنون حول مرضه .

" لقد اشتد الضعف على قلبي في هاته المدة الاخيرة ، مما
أوجب معه الطبيب على حرمانني من كل الاعمال الفكرية ، لا فوق بين
تحضير أو مطالعة أو كتابة لا تألم يا صديقي لاخيك ، فان قلبي هو
منبع آلامي في هذا العالم . ومن يدري ؟ لعله سيكون منبعا لمشل
هاته الآلام في عالم آخر . ان قلبي يا صديقي هو منبع آلام هاته النفس
التائهة الممذبة ، وهذا الجسد المعنى المنهوك ، وما دامت أحمل بين
جنبتي هذا القلب الكسير ، وما دامت الحياة تهددني ، ولا ترحم
فانني أشقى أبناءها .

كما يثبت الاستاذ كروني نص وثيقه وجدت في المستشفى الذي
توفي فيه الشابي وهذا نص الوثيقة :

"أبو القاسم الشابي تحت عدد ٢٥٦٢

المر : ٢٦ سنة (ذلك انه يحسب حسابا هجريا من ١٣٢٧ -
١٣٥٣) .

الدين : الاسلام

الحالة : متزوج

المكن : الاربانة

تاريخ دخول المستشفى : ٣ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٣٤ .

الفحص الطبي : مرض القلب

تاريخ الوفاة : ٩ أكتوبر ١٩٣٤ . (١)

كل هذه الوثائق لا تدع مجالاً للشك في مرض الشابي ، الذي
ألم به لمدة خمس سنوات امتدت من عام ١٩٢٩ - ١٩٣٤ ، وهذه
السنوات الخمس لم تكن فترة مرض الشاعر فحسب ، بل كانت فترة
نضجه وعبقريته التي عاشت مصاحبة لمرضه .

* * *

(١) أبو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته - شعره ، ص ٤٥ - ٥٣ .

الفصل الثالث

صاحب شخصيته

١ - التشائم

لعل أهم سمة تغلب على الشابي هي سمة التشائم والحزن ، الذي طالما
عمر قلبه ، وخالط نفسه ، حتى في اللحظات القليلة التي كان يستشعر فيها
لذة الحياة ، فأنت تجده يبكي دائما ، وأذا ضحك ، اختلطت دموع حزنه ،
مع دموع سروره . ولكن من أين جاءه الحزن ؟

لقد اجتمعت على الشابي اسباب عدة أدت قلبه ، وأوجعت نفسه ،
لعل أهمها موت والده ، وكانت هذه أول مصيبة تعلق بنفسه وقد ظهر
ذلك في كثير من الرسائل التي كان يبعث فيها أحزانه لنفر من أصدقائه
أو في الخواطر التي كان يكتبها كلما رفرفت روح أبيه حوله ومن ذلك :

"ليس لدي ما أكتبه عن نهاري هذا ، ولعلي خير لي ان اذهب الى
فراشي وأنام لانسى ولكنني ادرى انني لا أنام الا وبأجفاني خيالات
الدموع وأشباح الأسى ، سأوى الى فراشي ، وستجاذبني الاحلام الشخصية
المزعجة ، الذكريات الالهية الدائمة ، ذكريات الامل الضائع والقلب الصرع
سأرى أبي آه ! نعم ذلك الاب الذي شق له النار قبره ، وسواو التراب
عليه ، وبقيت بعده آلم وألذ وأسر وأحزن ! أجل سأراه كما قد رأيته
في ليالي الكثيرة الخالية حينما ينطفئ السراج ويشعل الفرفة ظلام
الدجى .

أراه على فراش المرض طويحا يتأوه ، ويمناه متألقين يومئذ الحمى
الاليم ، وأراه وهو في حالة ساكنه هادئه يجاذبني في شؤون كثيرة

بصوت عادي مطمئن ، وأراه وقد اشتدت عليه وضأة الداء ، وأصبح بمعالج
ألم الموت ونزاع الحياة ، والطبيب يفحصه ويحقنه بأدوية كثيرة ، ثم يخرج
يائسا مخفيا بأسه عني ، أنا المسكين الصغير . وأراه وقد شمله الموت
براحته فأصبح متزن النفس ، تخالسه في حلم النائم المطمئن ، والنساء
يبكين بقلب الليل ، ويملأن فجاج الانشق برنات النباحة ، وأنا كالظائر
الذي يبع من الحزن والنحيب ، طورا أقف عند رأسه واخرى عند رجله ،
واخرى عن يمينه واخرى من شماله ، وبهميني هذه اجرعه من حين
لآخر جرعا من الماء ، يمازجها دمعي المنهمل وتكاد تريقها همسات
تسبحني ، ثم رأيت التفت اليّ وأوقف قلبي ، فحسبته يرنو اليّ فاقتربت
منه قائلا : " أبي أبي ، ماذا تريد ؟ ولكن آه يا قلبي لقد كانت تلك
نظرة الموت وأنا لا ادري ، أنا الطفل الصغير الذي لا يعرف مواقف الموت
حسبها نظرات الحياة ... (١)

هذه بعض خواطره ، تظهر مدى انزعاجه وحزنه وأرقه وان اعم
ما يجلب الانتباه فيها قوله اكثر من مره - أنا المسكين الصغير - أنا الطفل
الصغير - فانا كنا علمنا ان الشابي قد ولد عام ١٩٠٩ ، وان والده
توفي عام ١٩٢٦ ، نرى ان الشابي كان قد بلغ المشيخنة وشبه وفاة والده ،
ولكن مصر على انه لا زال طفلا صغيرا مكثنا ، لقد عزمته الاحداث ،
فتصاغر امام نفسه ، أولم تمركه التجارب ، فهزم امام اول تجربته ، لقد
بكى الشابي بكاء اعترف انه بكاء نساء " مات ابي وظللت انتحب وأنسج
وأبكي بكاء النساء " ...

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته شعره ، ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦

قد تكون هذه الحادثة هي التي فجرت الحزن في نفس الشاعر ثم
توالى الاحداث لتضيف حزنا على حزن ، واذ بها تطمع نفسه بالسواد .
ثم فجعل الشاعر بحبيته ، ماتت وهي برغم لم يفتح ، ماتت وعسى
يشتاق ان ينضم بظلمها ، فجرت في حناياها بواعث العذاب ، وانطوى
قلبه على أسى لا سهيل فيه الى عزاء ، وأصبح عدوه الموت ، يجد فيه
وحشة وهولا وفراغا واكتئابا ، استمع اليه يقول :

بالامس قد كانت حياتي كالسماء الباسمة
واليم قد أمت كأعماق الكهوف الواجمة
قد كان لي ما بين احلامي الجميلة جدول
يجرى به ماء المحبة طامرا يتسلسل
هو جدول قد فجرت ينبوعه في مهجتي
أجفان فاتمة ارتبها الحياة لشقوتي
أجفان فاتمة تراءت لي على فجر الشهاب
كمروسة من غائيات الشمر في شفق السحاب
ثم اختفت خلف السماء وراء هاتيك القيم
حيث المذارى الخالذات بمن ما بين النجم
ثم اختفت أواه ! طائفة بأجنحة المنسون
نحو السماء وعا انا في الارض تمثال الشجون (١)

وفي قصيدة - مأتم حب - يلمح على قلبه بالمزيد من الكاء ، لان
حبيته ماتت ، ويلمح على عنقه ان تذرف الدمع مدرا را لتغسل جدث الحبيبة

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٦٩ .

يقول :

مات من تهوى ، وهذا اللحد قد ضم الحبيب
فأبك يا قلب بما فيك من الحزن المذهب
أبك يا قلب وحيد
ذل قلبي
مات حبي
فأذرفي يا قلة الليل ، الداررى عسبرات
حول حبي ، فهو قد ودع آفاق الحياة
بمد أن ذاق اللهب
واندبسه
واغسله
بدموع الفجر ، من اكواب زهر الزنبق
وادفنيه بحلال ، في ضفاف الشفق
ليرى روح الحبيب (١)

فإذا كان أبو القاسم الشابي ، قد سئم الحياة وقلاعها ، فما ذاك
الا بسبب فقدته من أحب ، وأنه حين يكس لم يبك مجدا اثملا ضاع ،
أو عمرا تصرم ، إنما يبكى حبا ، كان يملأ عليه حياته .

لست يا أمسي أبكيك لمجد أو لجـاه
فأنا احتقر المجد وأوهام الحياة
أو لعمر ، بلغت منه الليالي منتهاها

(١) أبو القاسم الشابي ، أغاني الحياة ، ص ٢١ .

وتلاشتني خضم الزمن الطافي قواه .
 فأنا ما زلت في فجر شبابي وضحاياه
 انما ابكيك للحب الذي كان بهـ
 يملأ الدنيا فأنني سرت في الدنيا أراه
 فإذا ما لاح فجر كان في الفجر سناه
 وإذا ما غرد طير كان في الشد وحده
 وإذا ما ضاع عطر كان في العطر شذاه
 وإذا ما رف زمر كان في الزمر صباه
 فهو في الكون جمال يملك الافق ضياه
 عبقري البحر مراح وديع في سماه
 ينسج الاحلام في قلبي بأشواق الحياه (١)

احب الشابي وتغاني في حبه ، رأى ان الفسرام أسمى حبة يهبها الله
 للشاعر ، وماذا يكون الامر لو غضب معين الحب ، وجف ورده ، فما الحياة
 الا انفاس الحب ، وليست الا الحاننا منغوسه موقفه على قيثارته السحرية ،
 والحب في عرفه نجمة للألم للمدلج الناري في فياحب التللم . فإذا
 احتجبت النجمة ، وتحطمت القيثارة ، وجف الورد ، بكى ابو القاسم وتألم .

ثم يجمع ابو القاسم بقلبه الذي اصابه المنيح المستعصي وهو في ريمان
 الشباب وميمية الصبا ، فشكا هذا الداء الذي استقر في قلبه ، وأقضى مضجعه ،
 وهدد حياته ، لم ينس ابو القاسم هذا الداء الذي يصارعه ويسير به
 سريما الى غلام الفناء ، فكان يتشبه بالحياة ، ويود لو يرتشف كأسه
 منها ، كما يرتشف غيره ممن عم في مثل عصره ، ونراه يشكو السس
 الشمر هذه الصلة .

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١١٧ ، ١١٨ .

يا شمر قلبي مثلما تدري شقي مثلما
فيه الجراح النجل يقدر من مفاوره الدم
جمدت على شفتيه ارزاء الحياة المابسة
فهو التعمير به مرارات القلوب البائسة
ابدا يفسح بحرقته بين الاماني الهاوية
كالهبل الفريد ما بين الزور والذائبة

ولكنه يعزى قلبه ، ويطلب منه الصمود امام مشكلات الحياة يقول :

يا قلب لا تسخط على الايام فالزهر البديع
يصفي لصباحات العواصف قبل انغام الربيع
يا قلب لا تقنع بشوك الهمس من بين الزهور
فروا آلام الحياة عذوبة الالم الجسور (١)

وعكذا نجد ان علة الشاعر كانت هي الاخرى من وراء تشاؤمه ، وان
اصابته في قلبه كانت من اهم اسباب عزوفه عن الحياة والناس ، فالرجل
المريض الجسم فالحال ما يكون مريض الاعصاب ، فيشور لكل شيء ، ويحتد لاتفه
الاسباب ، وقد يكون هذا المرض او النقص الطبيعي في الشخص سببا في ان
يجمعه يضييق بالحياة بل ويكرهها ، فالمرض أو النقص الطبيعي ثم الاحساس
بهذا النقص او الشعور والتفكير في ذلك المرض ، هما اللذان يتسلطان على
الانسان ، وهما يستطعيان ان يخلقا من الهادئ الرزين انسانا شائسا
تسردا ، هذه الثورة وهذا التمرد قد يظهران في القول ، كما يظهران في
العمل ، فليس غريبا ان يضييق الشابي بالناس وان يتبرم بالحياة ، بل ليس

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٣٥ .

كثيرا على شاعر رقيق الاحساس ، يشعر في قرارة نفسه بصاحبه وفكر فيه دائما ، ليس كثيرا على شاعر وعب شاعرية خصبة كالشابي برقب افول نجمه شيئا فشيئا ان ينظر الى الجانب الاسود في الحياة ، فاستمع اليه يخاطب حبيبته :

فافهمي الناس انما الناس خلق مفسد في الوجود غير رشيد
والسعيد السعيد من عاش كالليل فربها في اهل هذا الوجود (١)

ولعل من الاسباب التي ساعدت على اذكاء نار الحزن في نفسه ، هو الحال السيئ التي كان يعيشها الشعب التونسي تحت ظلال الخسوف والذل والهوان التي كان يسومه اياها المستعمر الفرنسي ، حاول الشاعر ان يهش المزيمه في النفوس فدعا الى قارعة الاحتلال ، ومحاربة التخلف والرجعية ، ولكن كلماته ذهبت ادراج الريح ، بل انه عوجم هو قبل ان يهاجم التخلف ، واتهم بالمروق والخروج على المجتمع .

بالاضافة لكل ما تقدم مما يهش الاسى والحزن في النفوس ، كان للشاعر نفس حساسه ، تعمل فيها الاحداث عملها ، وتحفل بحقير الامور وعظمتها .

واليوم احيا مزهق الاعصاب ، مشبوب الشهور
متأجج الاحساس ، احفل بالعظيم وبالحقير (٢)
تمشي على قلبي الحياة ، ومزحف الكمون الكبير
هذا مصيري يا بني الدنيا فما اشقى المصير

ويسرى احد النقاد ان شعور الشابي بالامتياز قد اوجعه ان لا صواب الا في جانبه ، وانه الوحيد البصير بمعاني الحياة ، فانتهى الى

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١٥٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

الكهرباء حاضر الانسانية وماضيها ومستقبلها ، وانكار قيمة الحياة (١)

وكان الشابي برحافة حسه ، وصدق تحمسه لمشاعر الناس من حوله يتسأل مع كل ذي ألم ، فهو يباك مع اليتيم ، مع الأم التي فقدت ابنها ، مع الفقير المعدم ، لم ير الشابي في الحياة سوى المصائب ، الموت ، الفقر ، السقامات ، كأنه لم ير اشراقاً الدنيا ، وانها تعطي وتأخذ ، وتمنع وتمنع ، لم ينظر الى الموت نظرة موضوعية على انه النهاية الحتمية لكل حيي نهائياً كان أم حيواناً أم انساناً .

كم بقلب الظلام من انه تهفو لخصات عيبة ابتسام
ونشيج مضم من فتاة انهضتها قوارع الایسام
ونواح يفيض من قلب ام فجعت في وحيدها البسام
وانين من معدم ذي سقام ، غصة الدهر بالخطوب الجسام (٢)

وفي الابيات التالية يجأر الشاعر بالشكوى الى الله ، مبيناً ما انتابه من احداث وما عرا قلبه من آلام :

يا اله الوجود ، هذه جراح في فؤادي ، تشكو اليك الدواهي
انت انشأتني فربها بنفسي بين قومي في نشوتي وانتهاهي
انت عذبتني بدقة حسي وتعقبتني بكسل الدواهي
بالاسى بالسقام بالهم بالوحشة ، باليأس ، بالشقا المتناهي

(١) خليفه محمد التليبي ، الشابي وجبران ، قال جاء في كتاب ابو القاسم محمد كرو - دراسات عن الشابي - دار العرب العربي ، تونس ص ١٠٤ .

(٢) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٧٣ ، ٧٤ . ٤٨ / ٠٠٠

بالمنايا تفتال اشبهن اماني وتذوي عجاجري ، وشفاهي
واذا فتنة الحياة وسخر الكون ضرب من الغمام الزاهي
يتلاش فوق الخضم : ويبقى اليم كالصهد مزهد الامواء (١)

فالشاعر يلجأ الى الله شاكيا ما اصابه ، شكا وحدته وتنكر شعبه
له ، شكا اليه رقة احساسه ، فاذا هو كوعرة عبّاد الشمس ، يتأثر بكل
ما في جوه المادى والمعنوى ، مهما كان المؤثر قويا او ضعيفا . شكا
الى الله المنايا التي تخطف اعز احبائه والسده ، وحببته ... وينتهي
بعد ذلك ليقرر ان فتنة الحياة وجمالها ليست الا كسحابة ممهف شد
ما تنقشع .

كره الشاهي واقع الناس لانه كان يحب الحياة حبا مثاليا وفيها
يحب الناس حبا خالصا سامها ، ويرنو الى الكون وما فيه بعين ملؤها
الشوق الصادق ، كره واقع الناس المؤلم ، كره فيهم الملق والنفث ، بقدر
ما احب لهم الصدق والاخلاق ، ودعاهم الى الاخذ بأسباب القوة ، والتمد
عن التغلف والخور ، ولما لم تجد دعواه اننا صاغية ، بل لان دعواه
قبولت بالاستهجان والاثهام بالمروق ، نعى على الحياة اهلها ، وسئم منها
واتجه الى عالمه المثالي عالم ما وراء الطبيعة عالم الخلود والابدية .

ان من امنى الى صوت المنسجون
وصدى الاجساد
ليس تستهويه الحسان الطمور
بين ازهار الربيع الساحرة

(١) ابو القاسم الشاهي ، اغاني الحياة ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

وابتسامات الحياة الأخيرة عن جلال اللسه (١)

ويقول :

عجيب ان يفرح الناس في كهـ ن اللىالي يحزننها المشبوب
ان خمر الحياة وردية اللون ، ولكنها سسم القلوب

بالاضافة الى ما تقدم من دواعي الحزن التي عاشت في قلب الشاعر
يكن هناك سبب آخر ، هو تأثر الشاعر بقراءاته لكبار أدباء الرومانسيه
من امثال بودلير ، ودي موسين ، ولامارتين ، وهو جو ، فطالما قرأ
ترجمات لاشعارهم وانتاجهم الادبي في مجلة أبولو ، التي انتسب اليها ،
ونشر شعره فيها ، ومن المعروف عن هؤلاء الرومانسيين ، مفالاتهم في وصف
مشاعرهم ، وعم يظهرونهم مبالون الى الحزن والاسى ، والهروب من الواقع ،
وهم كذلك شديدوا الاحساس بذواتهم ، يشعرون بتفردهم ، وانهم يمشون في
مجتمع لا يقدر نبوغهم وعبقريتهم ... فهم تائهون يبحثون عن الحقيقة فلا
يجدونها :

يا صميم الحياة اني وحيد	مدلج تائه فأين شروقك ؟
يا صميم الحياة اني فؤاد	ضائع ظام فأين رحيبك ؟
يا صميم الحياة قد وجم الناي	وفام الفضاء فأين هروك ؟
يا صميم الحياة اين اغانيك	فتحت النجم يصفى مشوقك ؟ (٢)

وفي قصيدته - صوت تائه - لا يرى في الحياة شيئاً يستحق ان يعيش
من اجله الانسان ، فأعراس الحياة مآتم ، وجناتها جحيم ، وشرابها

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٤٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٢ .

فاسد مسم ، ومويقاها انين ٠٠٠ ففلاهما وعجرهما ونشد الحياة في عالم
سماوى تتحق في المسرة .

قضيت ادوار الحياة مفكرا	في الكائنات معذبا مهموما
فوجدت اعراس الوجود مائعا	ورأيت فردوس الزمان جحيما
وحضرت مائدة الحياة فلم اجد	الا شرابا آجنا مسوما
ونفضت اعماق الفضاء فلم اجد	الا سكونا متعبا محسوما
تتهجر الاعمار في جنباته	وتموت اشواق النفوس وجوما
ولست اوتار الدهور فلم تنفض	الا انينا ، داما ، مكلوما
يتلو اقامع التماسه والاس	وبصير اغراج الحياة هموما
شردت عن وطني السماوى الذى	ما كان يوما واجما غموما
شردت عن وطني الجميل ٠٠	أنا الشقي ، فعشت مشطور الغواد يتيما
في غربة روحية ، ملهونة	اشواقها تنضي عطاشا هيمما
شردت للدينها ٠٠ وكل تائه	فيها يروع راحلا ومقيما
يدعو الحياة ، فلا يجيب سوى الردى	لدهسه تحت التراب ريمما
وتظل سائرة كأن قهيدا	ما كان يوما صاحبا وحيمما
يا ايها السارى ! لقد طال السرى	حتام ترقب في الظلام نجومما
اتخال في الوادى البعيد المرتجى	حييات ! لن تلقى هناك مروما (١)

هكذا هم الشعراء الرومانسيون يفلسفون الامور ، وفق مشتهياتهم ، لا
يرجعون الى الواقع ولا يحتكمون الى العقل ، بل للمخاطفة وحدها . انظر
الى ابني القاسم يقول :

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٨١ ، ٨٢ .

وتظل سائرة كأن تقبدها ما كان يوما صاحبها وحبيبها

يأخذ على الحياة وابناء الحياة سير قافلتهم • بعد ان يموت احدهم
وعلى يهد الشاعر ان تتمطل الحياة ، وان تقف عجلتها ، عند موت احده
ابنائها ٢٠

ويرى الشاعر الرومنسي ان الاقدار تصف ضد ، وان الرياح تجري بمالا
تشتهي سفنه ، وانه مظلوم سيء الظالع ، تلسمه الاقدار بأسواطها ، دون
ذنب جناه •

مالى تمذهني الحياة كأنني خلقى فريب ؟
وتهد من قلبي الجميل ؟ فهل لقلبي من ذنوب ؟
واذا سألت لم الوجود ، وكله عم مذنب ؟
قالت نواويس السماء قضت ، وما لك من عروب ؟
آه على قلبي ! وان شقيت كشقوته قلوبا
انقش من الموج الوضي ، ومن نشيد المنديل
لم تقترن اثم الحياة وكان مأواها اللهميب
مهما تضاحكت الحياة فانني ابدا كميم
اصغى لاوجاع الكآبة ، والكآبة لا تجيب
في مهجتي تتأوه البلوى ، ويهتاج النحيب
اني انا الروح الذى سيظل في الدنيا غريب
ويظل مضطلما باحزان الشبهة والعشيب (١)

(١) ابي القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٨٣ ، ٨٥ . ٥٢ / ٠٠٠

الرومانسيون امام واقعهم المر ، يحاولون ان يعرفوا اسرار الطبيعة والحياة ، ولكنهم لا يصلون الى الحقيقة ، بل يثيرون الاسئلة ولا يعثرون على اجابات لها ، فتبقى الحقيقة غائمة دونهم ، لا يستطيعون لها ادراكا امام كل هذا ينسحبون من الحياة انسحاب المهزوم ، يخشون ذواتهم التي يشعرون بتفرد لها وعقريتها ، وهذه الذاتية الرومانتيكية لها خصائص تتجلى على الاخص في عدم الرضا بالحياة في عصرهم ، وفي القلق امام عالمهم وما يمج به من احداث وفي الحزن الغالب على انفسهم في كل حال دون ان يجدوا له سببا ، وهذه الحال ناشئة من عدم توازن القوى النفسية عند هؤلاء الذين طغى الشعور عليهم بذات انفسهم طغيانا دفعهم دفعا الى القمة على كل ما هو موجود ، والتطلع الى ما لا يستطيعون تحديده ، خاصة في عالم السياسة والخلق والادب .

ولهذا يعتمد الرومانتيكيون من الواقع بالانطواء على انفسهم ونشدان مثال لهم ، فتتسع الهوة بينهم وبين الواقع وما ينشدون من مثال ويطنس عليهم الشعور الفردي على الرغم من انه سيظل دائرا حول معان انسانية عامة ، من شأنها ان تجيب هؤلاء الرومانتيكيين الهنا ، وتقهرهم الى نفوسنا (١)

ومن هذا قول ابي القاسم الشابي داعيا اعتزال حياة الناس :

وان اردت قضاء العيش في دعة شعيرة لا يفشى صفوها ندم
فاترك الى الناس دنياهم وضجتهم وما بنوا لنظام العيش او رسما
واجعل حياتك دوحا مزهرا نصرا في عزلة الغاب ينمو ثم ينعدم

(١) محمد فتحي غلال ، الرومانتيكية ، دار نهضة مصر للصح ، دون تاريخ ، ص ٤٩ .

وأجمل ليالك احلاما مفردة ان الحياة وما تدرى به حلم (١)

ثم يقول :

أود ان احيا بفكرة شاعر فأرى الوجود يضحك عن احلامي
الا اذا قضيت اسبابي مع الدنيا وعشت لوحدي وظلامي
في القاب في الجهل البعيد عن الورى حيث الضيعة والجمال الشامي
واعيش عيشة زائد متنبك ما ان تدنس الحياة ندام
هجر الجماعة للجمال ، تورعا عنها ، وعن بطش الحياة الدامي (٢)

من كل ما فات نلاحظ ان الشابي شاعر الحزن والاسى ، فلقارىء في ديوانه يجد كلمات الحزن وصور الاسى تحصر الديوان ، فقد احصت السيدة نعمات احمد فؤاد الالفاظ التي تضمنت معاني المذاب في ديوانه فوجدتها ١١٨ لفظة من مثل ، شجون ، شقاء ، ابتساس ، نواشب ، الهلها ، الرزايا ، الارعاق ، لظى البأس ، الهول ، الهول ، ضجيج ، كمين ، غريب ، انين ، حزن ، حنين ، اغصان ، حيران ، النحيب ٠٠٠ الخ . وان ديوانه احتوى على ٦٢ لفظا من اسماء الدهر . كاللهالي ، الدهر ، الايام ، الزمان ٠٠٠ الخ .

اما الجن فقد ظهرت في ديوانه خمس مرات . والدياجير ، والظلماء واخواتها تتوالى تباعا في ثنايا القصيد ، ولقد ضاق الشاعر نفسه بالظلام وتهاويله فاشرب الى النور ، وهتف به شدة وتسع عشرة مرة مرودا هذه الالفاظ : شعله ، نور ، الفجر ، الضياء ، شمع ، لألاء الصبح ، الضحى (٣)

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٥١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٥ .

(٣) نعمات احمد فؤاد ، شعب شاعر ، ابو القاسم الشابي ، مؤسسة الخانجي بصر ١٤٥٨ ،

وحاول الأستاذ شوقي ضيف أن يقف على اسباب حزن الشاعر فقال
 " كان احساس ابي القاسم الشابي حادا ، وجملته حدثه محبا للحياة صبا
 بهيا ، وشعر برؤوس افاع تمتد اليه في طريقه ، فتمنعه من السير بل
 تردده الى داره ، ان لم يكن الى فراش علة ، فرجع محزوننا يجراذباله ،
 والكآبة قد ملأت نفسه ، وملأها ايضا الاحساس الدقيق بالكارثة ، ومما
 ينتظر من موت عاجل محتوم .

ولم يجد امامه ما يثير لواجه سوى ناي شعره ، فأخذ يشدو عليه
 اغاني مشجيه ، نظمها والدموع تنهمل من عينيه ، وعي لذلك تعد اشجى
 اغانيها في العصر الحديث ، لان صاحبها يلها بدموعه وهو يكتبها ، ولانها
 تصور الما حقيقيا ، بل لان صاحب هذا الالم كان حاد الحس ، فمقط لا
 على الالفاظ التي تمثل ألمه ، وانما على الابر التي تلسع ، وحس الابر في
 نيران قلبه ، فاصبحت تكوى وتلدع . (١)

ويرى الأستاذ محمد الحلوي ان ابا القاسم مرنى تشاؤمه في اصور
 ثلاثة ، الطور الاول : عود دور التشاؤم القاتم ، وفي هذه المدة كان ينحو
 نحو جبران ويكتب على مطالعة المعصرى انكبابا كليا ، فلما نظم اول اشعاره ،
 كان مفرطا في اليأس والتشاؤم ، وكان هذا التشاؤم من النوع السهل الرخيص ،
 الذي يشاركه فيه كثير من صغار الشعراء وقتلديهم ، فهو تشاؤم لا يعرف
 مبعثه ، ولا الداعي اليه ، وعلة تردده وسبب وجوده .

الطور الثاني : نراه متشاؤما ، ولكن تشاؤمه في هذه المرة مصحوب
 بالتعميل ، وحزنه مبعثه الحيرة ، وكآبته تعتمد على استمرار تساؤله

(١) شوقي ضيف ، دراجات في الشعر العربي المعاصر ، دار المعارف ، بدون تاريخ ،

الطبعة الثالثة ، ص ١٤٤ .

وحيرته وتطلعه الى البقيين .

الطور الثالث : يبدأ من اضيافه في عين دراعم ومن هنا اتجه شعره وجهة جديدة (١) .

ولكن الاستاذ الحلوي لم يوضح عنده الوجهة الجديدة ، وارى ان الشابي في حيرته وتساؤلاته لم يعمل الى فلسفة حقيقية يملل بها سر هذا التشاؤم ، بل بقي حائرا .

اما الاستاذ ابو القاسم محمد بدرى فيرى ان نظرة الشاعر للحياة هي التي عكست على نفسه الصورة القاتمة المزوجة بحلو ومر ، وشهد وصاب ، ولا مزية في ان فلسفة الشابي في كل الوان شعره مستمدة من احساسه بذاته القلقة ، ونفسه الشائرة على ما في الكون من نظم وأوضاع ، وقد يجيب الشاعر احيانا على حيرته بما يوضح هذا الاحساس وبين عنده النائرة القاتمة الحزينة (٢)

ما عنده الدنيا الكهبة ويلها حقت عليها لعنة الاحقصاب
الفجر يولد باسم متهدلا في الكون بين نجمة وضباب

اما الاستاذ عمر فرخ فيرى الشابي شاعرا متشاوما عابسا يحاول ان يزين شعره احيانا بشيء من روح الامل والتفاؤل ، الا انه كان مقبلا بين الامل والبأس ، وكان البأس عليه اغلب . (٣)

(١) محمد الحلوي ، مع الشابي ، سلسلة كتاب البحث ، تونس ١٩٥٥ ، ص ٧٨ .

(٢) ابو القاسم محمد بدرى ، الشاعران المتشابهان ، ص ٢٠ .

(٣) عمر فرخ : شاعران معاصران ، ابراهيم طوقان ، ابو القاسم الشابي ، طبعه اولى ، بيروت ١٩٥٤ ، ص ١٦٠ .

ولكن عدل كان أبو القاسم دائم التشاؤم ؟ ألم تعمّر الفرحة قلبه
قط ؟ هل خلا ديوانه من قصائد غنى فيها للحياة ؟

إذا كان الشابي كثير الهم بالحياة ، إلا أنه متفقد عليها دؤوب على حسب
أعطى ، إذا عمره اليأس مره ، يعاوده الفأل مرات ، يوقن أن الظلام محققة
أشراق ، وأن الليل لا بد أن يحويه تنفس الصباح .

إن ذا عمر ظلمة غير أني من وراء الظلام شمت صباحه
ضيق الدمر مجد شعبي ، ولكن سترد الحياة يوماً وشاحه

وهو يدعو إلى الأقبال على الحياة والدأب في السعي من أجل النهوض
بها ، يقول :

ولا تنهض وسر في سبيل الحياة ، فمن نيام لم تتغلّره الحياة	ولا تخش مما وراء التلاع
فما ثم إلا الضحى في عباء	والأربيع الوجود الضير
يطرز بالورد ضافى رداء	والأريج الزعور المباح
ورقش الأشعة بين المباء	والأحمام المروج الأنيق
يغرد منطلقاً في غنائه	إلى النور فالنور عذب جميل
إلى النور فالنور ظلّ الإله (١)	

ويدعو الشاعر إلى التعلق بالحياة والعمل بجد في سبيلها ، فهي
ليست إلا للكافحين في سبيلها المنافحين عنها .

ومن لم يعانقه شوق الحياة	تخسر في جوعنا واندر
فويل لمن لم تشقه الحياة	من صفة الصدم المنتصر

(١) أبو القاسم الشابي ، أغاني الحياة ، ص ٨٨ .

كذلك قالت لي الكائنات وحادثني روحها المستتر
وقالت لي الارض لما سألت: "أيا أم نسل تكرمين البشر"
"إبارك في الناس اعمل الظموح ومن يستلذ ركوب الخطر"
"والمن عن لا يماشي الزمان ، ويقنع بالميشر عيش الحجر"

وإذا كان قد دعا إلى الظموح وركوب الخطر في سبيل الرقي بالحياة
والارتفاع بها ، فإنه يدعو إلى الحياة لا تشقيط من ابنائها الأكمل من سلا
النشاط نواده ، وعمر قلبه بحبها .

هو الكون حي يحب الحياة ، ويحتقر الميت ، مهما كبر
فلا الافق يحضن ميت الطيور ، ولا النحل يلثم ميت الزعر
ولولا امومة قلبي الرؤم ، لما ضمت الميت تلك الحفر
فويل لمن لم تشقه الحياة ، من لعنة العدم المنتصر

يؤمن الشابي بقوانين الحياة ، وأن البقاء للأفضل ، وأن الحياة دائمة
المسير ، لا تنتظر المتخلفين المتساعين .

ورن نشيد الحياة المقدس في هيكل ، حالم ، قد سحر
وأعلن في الكون : أن الظموح ، لهيب الحياة ، وروح الظفر
إذا طحت للحياة النفوس فلا بد أن يستجيب القدر (١)

احب ابو القاسم الحياة أحب لذائذها ، احب فيها المرأة الجميلة التي
تبلى قلبه ، واقامت في نفسه تسمع وجهه ، انها ليست كالحياة ولكن
الحياة نفسها .

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٢٠ .
٥٨ / ٠٠٠

انت انت الحياة في قدسها السامي ، وفي سحرها الشجي العريد .
 انت انت الحياة ، في رقة الفجر ، في رونق الربيع الوليد
 انت انت الحياة كل اوان في رواء من الشهاب جديد
 انت انت الحياة فيك وفي عينيك آيات سحرها الممدود (١)

واستمع اليه مخاطب محبوبته :

ظهرى يا شقيقة الروح ثمرى بلهب الحياة ، بل قبليني
 ان نار الحياة والكوش المنشود في ثراك الشهي الحزين
 فهو كأس سحرية لرحيق الخلد قد صاغها اله الفنون
 قبليني واسكرى ثمرى الصادي وقلبي ، وفتنتي وجنوني
 آه ما اعذب الفرام واحلى رنة اللثم في خشوع السكون (٢)

ولكن بعد ان عرضنا لاشعار الشابي الهارب من الحياة المتشائم عنها ،
 وتلك التي يقبل فيها على الحياة ، ويدعو للسمي حيثما من اجل النهوض
 بها ، عمل يعني ذلك تناقض ابي القاسم ؟؟ وانه يمشر لحظته ؟؟ ان
 سرته لحظة مدحها ، وان ساءته عندهم بكاء وشكاه ؟؟

لست من القائلين بذلك ، بل ارى ان حب الحياة عند ابي القاسم هو
 الامل ، لانه طالما غناها ، وطالما دعا شمه ان ينهضوا بها ، وان جاءت
 شكواه من الحياة مره ، فما ذلك الا لانه يحزن عليها ، الا يتعنى احدنا
 الصوت في احدى ساعات ضنكه وصورة فضبه ؟ ولكن لا يلبيث ان يتخذ من
 ذلك حافزا ، يدفعه للتخلص مما عوفيه ، اما بالعداواة من علة اصابت به ،

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٢٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

او متغلط من كهوة ألمتهه ، كل ذلك لانه يحب الحياة ويكره الصدم ،
 هكذا كان ابو القاسم احب الحياة لشعبه ولنفسه ، فلما لم يصغ له الشعب
 ولما لم تبرأ نفسه من آلامها ، سئم الحياة من حيث احبها ، ولكنه كان
 يقام السأم ، ويحارب اليأس ، لهماود العمل من جديد ، ويكرر النداء
 بضرورة العمل الجاد من اجل الحياة والسوق بها ، مات ابو القاسم بمنزلة
 احبا قلبه ، ولكنه مات ونفي قلبه امل ان يحيا الشعب الذي ربط حياته
 بالارادة الجهارة التي ستزفم حتى القدر على الخضوع .

• كان قلبه الملبل واسما جيبا راقويا .

ما قلب كم فيك من كون قد اتقدت	فيه الشمس وماشت فسوقه الامم
ما قلب انك كون مد عشر عجب	ان يسأل الناس عن آفاقه يجعوا
كانك الابد العجول . . . قد عجزت	عنك النهى ، واكهرت حولك الظلم
تضي الحياة بماضيها وحاضرها	وتد عب الشمس والشطآن والقسم
وانت انت الخضم الرحب لانفج	ينقى على سفاك الطافي ولا الم
تهلوا الحياة فتليها وتخلمها	وتستجد حياة ما لها قدم
وانت انت شباب خالد نضمر	مثل الظهيرة ، لا شيب ولا عزم (١)

• لم يكره الشامي الحياة فهي موسيقى يطرب لها .

احبني لموسيقى الحياة ووجيها	وانيب روح الكون في انشائي
واسمخ للصوت الالهي ، الذي	يحيي قلبي ميت الاعداء
النور نفسي قلبي وبين جوانحي	فعلام اخشى السير في الظلماء (٢)

(١) ابو القاسم الشامي ، اغاني الحياة ، ص ١٥٦ ، ١٥٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٩ ، ١٨٠ .

واحسب الشابي الحياة حتى صرح بنفسه انه عبد لها ، وان
التشائم من الحياة ورفضها هو ضرب من الهذيان والبهتان .

ما كنت احسب بعد موتك يا ابي	ومشاعري عماء بالاحزان
اني مأظماً للحياة واحتسي من	كأسها المتوهج النشوان
واعود للدنيا بقلب خافق	للحب والانفراح والالحيان
ولكل ما في الكون من سور المنى	وغرائب الاعواء والاشجان
حتى تحركت السنون واقبلت	فتن الحياة بسحرها الفتان
فاذا انا طفل الحياة المنتشي	شوقا الى الاصواء والالوان
وانا التشائم بالحياة ورفضها	ضرب من البهتان والهذيان
ان ابن آدم في قرارة نفسه	عبد الحياة الصادق الايمان (١)

وتكاد تدعش عندما تسمع الى ابي القاسم وهو يحدثك عن
(السعادة) وعن مواصفاتها ، وكيفية تحقيقها ، فهو يرى ان السعادة لا
تتأتى لفرد الا اذا ابتسم امام كل مشكلة ، وضحك لكل معضلة ، فالسعادة
بعمدة التحقيق ، ولا يمكن ان يحياها انسان الا بالابتسام للحياة سراتها
واحزانها .

خذ الحياة كما جاءتك مبتسما	في كفها ، الفار او في كفها العدم
وارقص على الورد والاشواك مشدا	فنت لك الطير ، او فنت لك الرجم
واعمل كما تأمر الدنيا بلا مضى	والجم شحورك فيها انها صمم
فمن تألم لم ترحم مضاعته	ومن تجلد لم تهزأ به القمم
هذي سعادة دنيانا فكن رجلا	ان شئت - ابد الابد - بيتصم (٢)

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٨٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥١ .

ابو القاسم الشابي الذي علمنا كيف نبكي ، يعلمنا كيف نضحك ،
يسل كيف نسعد ...

ولكن رومنتيته لا تفارقه حتى وهو يعلمنا كيف نسعد فهو
يدعونا بالاضافة الى ما تقدم ان نهجر الناس ، نهجر نظامهم الاجتماعي ،
نهجر نظامهم الحضارى ، لنسكن الشاب ، ونهتمد عنهم .

وان اردت قضاء العيش في دعة شصية لا يغشي صفوها نسدم
فاترك الى الناس دنياهم وضجتهم وما بنوا لنظام العيش اودسما
واجعل حياتك دوحا مزهرا نظرا في عزلة الشاب ينمو ثم ينعدم
واجعل ليايك احلاما مفردة ان الحياة وما تدوى به ظلم (١)

وبعد فنحن الان امام شاعر يمس فأبكنا ، وحزن فأحزننا ،
ضحك للحياة وغنى لها ، وعلمنا كيف يمكن ان نعيش فيها بتحديدنا ،
علمنا كيف نسعد وما هي سبل السعادة ، فهل نحن امام شخصية
متناقضة ؟

أيهما أصل في نفسية الشابي حبه للحياة ، أم بغضه لها ،
لعل فيما قاله الدكتور شوقي ضيف ما يجيب على تساؤلنا " واكبر
الظن ان ليس هذا الحب الذي يرثيه مع قلبه الا حبه للحياة ، وما
يتألق في بصره من جمالها الذي يستطع على الاشياء والاشخاص من
حواله ، وانه ليريد ان يعانق هذا الجمال بكل جوارحه ، فترده بد
سوداء ، تخرج له من الظلام ، تنهيه ان يقترب فيبكي ويئن ، ويشعر

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١٥١ .

كأن الدنيا بكل ما فيها من سعادة وجمال وفتنة قد فُتت من تحت
بصره ، ولم يعد له الا كهف الموت يتمشربين صخورها ، وبالموت الحياة
حين يضغض الموتور على قلب شاعر وصدرة ، فتسود الدنيا في عينيه ،
ولا يجد ما يفرج عن كربته ، او يكشف عن غمته ، حتى امانيه فانها
تهوى بتساقطة ، تساقط الشهب ، وماذا بقي للشابي من دنياه ؟
انه لم يبق له الا الظلام الموحش والا الرؤى المزعجه والاشباح المخيفه
أشباح الموت القاسي القاسم الذي لا يرحم . (١)

٢ - فلسفة الموت عند ابي القاسم الشابي :

الدارس لديوان الشابي يجد العديد من القصائد يرحب فيها
الشاعر بالموت ويناجيه ، وكأن رباطاً من الصداقة متين يربط بين
الاثنين ، ولكن نظرة متألمة تظهر لنا العكس ، لقد كان الموت عند
ابي القاسم الالسد ، يخشاه ويهرب منه .

يا موت ماذا تبتغي مني وقد مزقت صدري
ماذا تسود وقد سودت بالاحزان فسكرو
يا موت قد شاع الفؤاد ، واقفرت فرصات صدري
وقدوت امشي مطرقاً من ظول ما اقلت فكري
يا موت نفسي ملت الدنيا ، فهل لم يأت دوري (٢)

فالموت هو السبب في كل ما يعاني ، وهو يتعجله لا لأنه يحبه ،

(١) شوقي ضيف ، دراسات في الشعر العربي المعاصر ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٢) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

بل لانه عذبه فزهده بالحياة . . . الموت عمو الذي اودى بوالسده ،
ثم اتبعه بمحبوبته . استمع اليه يقول :

كنّا كزوجي طائر ، في دوحة الحب الامين
نقلوا ناسبه المني بين الخمائل والفسون
مفردين مع البلايل في السهول وفي الحزون
ملا الهوى كأس الحياة لنا ، وشمعها الفتون
حتى اذا كدنا نرشف خمرها ، غصيب المنون
وأعصاب بالحب الوديع ، فودع العشر الامين
وشدا بلحن الموت في الافق الحزين الستكين
ثم اختفى خلف الغيم ، كأنه الطيف الحزين (١)

الم يكن الموت يضارده عو نفسه ، بعد ان أدهى المرض قلبه ،
فالموت بلا شك سيكون العدو الاول للشابي ، ولكن لم نلجس الشاعر
الموت وتفننى به ، لم رمز اليه بالصباح ؟ ، البست اشراقة الصباح
مقبة اظلامه الليل ، عد الليل بحلته عو رمز لحياة الشاعر ، وعد
الصباح باشراقته ، هو الموت الذي يبدد سأم الحياة ، كما يبدد
النور الظلمة ؟

استمع اليه يقول :

يا بني أمي	تري ابن الصباح
أوراء البحر	أم خلف الوجوه
يا بني أمي	تري ابن الصباح

(١) أمنا القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٥٤ .

ويظهر رمزه للصباح بالموت نفسي قصيدته الى الموت :

الى الموت يا ابن الحياة التعميس	ففي الموت صوت الحياة الرخيم
الى الموت ان عذبتك الدهور	ففي الموت قلب الدهور الرحيم
الى الموت فالموت روح جميل	يرفرف من فوق تلك القوس
الى الموت لا تخش اعماقه	ففيها ضياء السماء الوديع
هو الموت طيف خلود جميل	ونصف الحياة الذي لا ينسج
هناك خلف الفضاء البعيد	يعيش المنون القوي السميع
يضم القلوب الى صدره	ليأسوا مضجعا من جسره
ويجث فيها ربيع الحياة	ويهمسها بالصباح القسوي (١)

فالموت عند الشاعر هو الصباح الذي يبدد ظلمة الحياة ،
ويزيل ما اعتسورها من غم ومصائب .

الى الموت ان عذبتك الدهور ففي الموت قلب الدهور الرخيم
فهو ان ان رحب بالموت رحب به لان الدهر عذبه ، ووجد في
الموت القلب الرحيم .

ولما كان الموت شديد الصلة بالشاعر ، صلة عدا وبغضاء ،
صلة وحشر بفرسة ، كان لا بد ان يحاول الشاعر فهم كنهه ، على وجد
في تلك المعرفة ما يميزه . فأثار الشاعر اسئلة ، ووضع علامات
استفهام اسام قضايا تعرض لها العديد من فلاسفة الزمان وحكمائه ،
ولكن هل استطاع الشابي ان يحصل على اجابة يعزى بها نفسه ،

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٢٦ .

وبحل لنا اللغز ؟

لغز

نحن نمشي ، وحولنا هاته الاكوان تمشي ، لكن لاية غاية ؟
نحن نشدو مع المصانير للشمس وهذا الربيع ينفخ نسايه
نحن نطلو رواية الكون للموت ولكن ماذا ختام الروايه ؟
عكدا قلت للرياح فقالت "سل ضمير الوجود كيف البداية ؟"
وتغشى الضباب نفسي فصاحت في ملال : الى اين أمشي ؟
قلت "سيرى مع الحياة" فقالت ما جنيتا ، ترى من الميرامس ؟
فتهاقت كاللهشيم على الارض وناديت اين يا قلب رفشي ؟
هاته علني اخذ ضريحي في سكون الدجى وادفن نفسي (١)

تساءل ابو القاسم عن نهاية رواية الحياة ، ولكنه قول بسؤال
عن كيفية البداية ، ولكن الشابي قد اعصابه ، ولم يجد جوابا
فأسرع ينادى نفسه لتحضير الرقش والممول ليخط ضريحا لها .

ولما لم يجد الشابي اجابة لسؤاله ، وبقي اللغز بدون حل ،
عاد ليهاجم القدر عجوما عنيفا ، وأي شيء يفيد الهجوم ، وليس هو
دليل عجز ؟

يا ليل ما تصنع النفس التي سكنت هذا الوجود ، ومن اعدائها القدر
فانما الموت ضرب من حبائله لا يفلت الخلق ما عاشوا فما النظر
عذا هو اللغز عماء وقدم على الخليفة وحش فاطك حذر

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .
٦٦ / ٠٠٠

قد كبل القدر الخاري فرائسه فما استطاعوا لها دفعا ، ولا حذروا
وخطأ أميهم ، كمي لا تشاهده عين ، فتعلم ما يأتي وما يذر
لا الموت ينقذهم من هول صولته ولا الحياة ، تساوى الناس والحجر
حار الساكنين وارتساعوا وأعجزهم ان يحذروه ، وهل يجديهم الحذر
قد ايقنوا انه لا شيء ينقذهم فاستسلموا لكون الرعب ، وانتظروا

لقد اقتنع الشاعر ان كنه الحياة سرٌّها محقد ، لا يمكن ان تصل
اليه نفسه ، استسلم الشاعر للقدر ، ولكنه استسلم لم يصدر عن سرد
اليقين ، وظمأنينة النفس ، فهو ان يودع الحياة يودعها ببيكاء وعويل
وعواشد ما يكون حرصا عليها .

وقهقه القدر الجبار سخريه بالكائنات ، تضاحك ايها القدر
تمشي الى العدم المحتوم باكية طوائف الخلق والاشكال والصور
وانت فوق الاس والموت مبتسم تنو الى الكون بيني ثم يندثر (١)

ولعل اكثر قصيدة تظهر فيها فلسفة الحياة والموت عند الشاعر
هي قصيدته - حديث المقبرة - وهي حديث فلسفي ، مداره الحياة
والموت ، والخلود والكمال . قال الشاعر في تقديمه لقصيدته " في
ليلة مظلمة من ليالي الصيف ، خرج الشاعر بنفسه من القرية الصغيرة
النائمة في سفح الجبل ، وفي ذلك السكون الشامل ، والظلام المركم ،
اخذ يمشي بين اشجار الزيتون المزهرة في مسلك منفرد ، ثم اعتلى تلك
الربوة الصغيرة ، حيث كانت مدافن القرية ، وحيث ينال الموتى في
صمت الدهور .

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

وبين القبور الخرساء الجاشة تحت أضواء النجم ، حيث يتحدث
كل شيء بجلال الموت ، وتفاهة الحياة ، جلس الشاعر بأقدام متعبه ،
ونفس شائره ، واجفان قد اذهلتها الاحزان ، فطافت بنفسه الاحلام
والافكار والذكريات ، وتقلب امامه صور الموت وأمواج الحياة وتناهمست
امامه رسم الايام الكثيرة ، ما نام منها في قلب الازل ، وما لم يزل
ينسو في احشاء الابد الكبير . وجاشت في قلبه عساته العصور
والخواطر عجت في صدره عجاج الامواج الشائرة ، فألقاها الى الليل
في النشيد التالي (١)

اتفنى ابتسامات تلك الجفون ؟ ويخيم توهم تلك الخدود ؟
وتدوى وهدات تلك الشفاه ؟ وتهوى الى الترب تلك النهود ؟
وينهد ذاك القوام الرشيق ؟ وينحل صدر ، بديع وجيد ؟
وتريد تلك الوجوه الصباح وقتنة ذاك الجمال الفريد (٢)

هذه الابيات تعكس رغبة الشاعر في الحياة وحبه اياها ، فهو
شفق عليها ان تنزل ، ترائق السمت صهيل الزائله ، فهو يخشى زوال الابتسامة
المذبة ، ويخاف فناء الخدود الجميلة ، ويفزع من ان تدوى الشفاه
الوردية ، والنهود العاجية ، بل هو يفرق من اندثار القوام الجميل .

وخشيته لم تقتصر على فناء المرأة الجميلة فحسب ، فهو يخشى زوال
الصباح المذب الجميل واندثار الشمس الدافئة ، وضوؤها المشرق ، يخشى
اندثار مصال الطبيعة الجميلة التي احبها ، بحارها ، وانهارها ،
رباعها ، بساينها ، ورودها ، اعشابها .

(١) و (٢) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٣٤ ، ١٣٦ .

ويقضي صباح الحياة البديع ؟ وليل الوجود الرهيب العتيد
 وشمس توشى رداء القمام ؟ وبدر يضيء ، وغيم يجود
 وضوء يصرع موج الغدير ؟ وسحر يطرز تلك البرود
 وبحر فسيح ، بصيد القرار يضح ويدوى دوى الوليد (١)

وعو يقرر ان هذا الفناء الشامل الذى ينتظر الكون ، هو شيء
 أعظم من ان تحمله النفوس ، ويتساءل لماذا لا يخلد الانسان ولماذا لا
 تستمر الحياة .

كبير على النفس هذا العفاء وصعب على القلب هذا الهمود
 وماذا على القدر المستمر لو استمرأ الناس طعم الخلود
 ولم يخفروا بالخراب المحيط ولم يفجعوا في الحبيب المولود
 ولم يسلكوا للخلود المرجى سبيل الردى ، وظلام اللحد
 فدام الشيب ، وسحر الخرام وفن الربيع ، ولطف الورود (٢)

ويستمر الشاعر في تساؤلاته ، وتظل الحيرة تسربل قلبه ، ويظل
 ضممه في الخلود يسيطر على نفسه ، ويمكك حسية ، " وكانت بين القبور
 روح فيلسوف قديم مجهول جنات تنزور جسمها الذى اصبح رملًا بآليته
 في احشاء التراب ، فأشفقت على الشاعر المسكين من آلامه الروحية
 وحيرته الظاعنه ، فأرادت ان تعلمه الحكمة ، وتسكب في قلبه برد
 البقين فتخاطبه بهاته الايات (٣)

تبرمت بالعيش خوف الفناء ولو دمت حيا سئمت الخلود
 وعشت على الارض مثل الجبال جليلا رهيبا ، غريبا وحيد

(١) و (٢) و (٣) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

فلم ترتشف من رضاب الحياة	ولم تمطمح من رحيق الوجود
ولم تد رما فتنه الكائنات	وسا سحر ذاك الربيع الوليد
وماذا يرجى ربيب الخلود	من الكون - وهو القيم الابد -
تأمل . . فان نظام الحياة	نظام دقيق ، بديع ، فريد
فما حبب العيش الا الفناء	ولا زانه غير خوف اللحد
ولولا شقاء الحياة الاليم	لما ادرك الناس معنى السعد
ومن لم يرعه قطوب الدياجير	لم يفتبط بالصباح الجديد (١)

هكذا قالت روح الفيلسوف للشاعر حاولت ان تمنعه ان الخلود
يعني السأم وانه يعني الجمود ، جمود الجبال ، وان خلود النفس قاتل
ظموها ، فمن استمتعها بالحياة ، فما احب الانسان الحياة وحرض
عليها الا لخوفه من اللحد ، فان تبدد هذا الخوف ، واضمأن الى
استمرار الحياة ذهبت لذتها ، وان الانسان لا يستشعر معنى السعادة
الا اذا عانى الخوف ، وشعر بالشقاء .

ولكن عمل اقتنع الشاعر بما قالت له روح الفيلسوف ؟ استمر
يحاول وما يجادلها ، علّه يصل الى قناعه .

اذا لم يكن من لقاء الفنايا	مناصر ، لمن حل هذا الوجود
فأى غناء لهذا الحياة	وهذا الصراع ، المنيق الشديد
وذاك الجمال الذي لا يمل	وتلك الاغاني ، وذاك النشيد
لماذا نمر بوادي الزمان	سراعا ، ولكننا لا نعود
فنشرب من كل نبع شواها	ومنه الرقيق ، ومنه الزهيد

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٣٦ ، ١٣٧

ومنه اللذيد ومنه الكريه ومنه المشيد ومنه المبيد
وكل - اذا ما سألنا الحياة - غريب لعمري بهذا الوجود
اتيناه من عالم لا نراء فرادى ، فما شأن عذى الحقد
وما شأن عذى العداء العنيف وما شأن هذا الاخاء السود (١)

يتساءل الشاعر ، ويقول اذا لم يكن من الصوت بد ، فلمنا اذا
التكالب على هذه الدنيا ، لماذا الجرى وراء مسراتها ، لماذا الاقتتال
بين ابنائها ، بل لماذا تلك الصداقات التي تربط بين الناس ،
وكأنني بالشاعر وقد تجرع الحقيقة يود منا ان نعيش الحياة بسلبية ، لا
نهتم بتحير الاسور وصغيرها ، لا نهتم بمتع الحياة ومسراتها .

ولكن روح الفيلسوف تقول له :

خلقنا لنبلغ شأواً والكمال ونصبح أهلاً لمجد الخلود
ونكسب من عشرات الطريق قوى لا تهدأ بدأب الصمود
ومجدنا يكون لنا في الخلود اكابيل من رائفات السورود (٢)

كانت روح الفيلسوف أكثر إيجابية فأبلفته اننا هنا نحيا لنحاول
بلوغ الكمال نستحق الخلود ، خلود افعالنا لا خلود اجسامنا .

ولكن مع ذلك عمل اقتنع الشاعر استمع اليه يقول "هو بالقبرة
يروب من الأرواح ، في طريقها الى العالم المجهول ، فطارت معها
روح الفيلسوف وخلفت عالم الشك والكتابة لابنائها البائسين وظل الشاعر
يردد بينه وبين نفسه :

خلقنا لنبلغ شأواً والكمال ونصبح أهلاً لمجد الخلود (٣)

(١) و (٢) و (٣) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٣٦ ، ١٤٠ .

ولكننا بعد كل ما تقدم لا زلنا أمام سؤال ملح ، يتطلب منا جوابا ،
هل كان أبو القاسم محبا للحياة ميغضا للموت ؟ أم انه كان كارهها
للحياة مرحبا بالموت ؟ وقد وردت في ديوانه العديد من القصائد
يغض فيها الموت ، والعديد من القصائد يدعو فيها الى الموت .

الى الموت لا تخشى امماقه ففيها ضياء السماء الوديع
هو الموت طيف خلود جميل ونصف الحياة الذي لا ينسج

اختلف النقاد ممن تناولوا شعر الشابي بالدراسة والتحليل ، في
فلسفة الموت والحياة عنده فيرى بعضهم ان الشابي كان محبا للموت ،
لان مظاهر عشقه له تنشر عبر ديوانه (١)

ويرى آخر ان الشاعر كان قبلا على الموت ، اقبالا ايجابيا واعيا
راجيا ان يجد في صدره الراحة من عذاب العالم المظلم (٢)

وهناك من رأى ان الشابي لم يعشق الموت حتى ولو شقيت الحياة
ولم يرمنه الا استعلاء عندما يقن انه سيشتري سريعا ، حاول
ان يصرف نفسه عن مرارة الكأس ، او يهون هذه المرارة على الاقل (٣)

ويرى الباحث ان الشابي كان يحب الحياة ويكره الموت ، ويشقى
اذا احس يقرب النهاية . حين اعيب الشابي بقلبه ، وادرك ان الموت

(١) مجلة الاداب ، العدد السابع ، السنة الثانية ، يوليو ١٩٥٤ ، ص ٥ .

(٢) خليفه محمد التليسي ، الشابي وجبران ، مقال ورد في كتاب دراسات
عن الشابي اعداد ابو القاسم محمد كرو ص ١٠٢ .

(٣) نعمات احمد فؤاد ، شعب وشاعر ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

مترص به لا محاله ، لا ينفعه طب الاطباء ، ولا التعاويذ والرقى ،
عندها رجب بالموت كشر لا بد منه ، وكأني به يقول :

اذا لم يكن من الموت هد فمن الماران تصوت جنانا
ساعت حاله باصابته بقلبه ، ويموت من احب ، وبأعدائه المترصين
به ، شمر بتفاعة العيش وتمنى الموت ، ولسان حاله يقول :
ليس من مات فاستراح يميت انما الميت ميست الاحياء
انما الميت من يعيش كميها كاسفا باله قليل الرجاء
احب الشابي الحياة ليس لنفسه فحسب ، ولكن لشعبه فطالما عثف
بهم مطالبهم بالحياة :

اذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر
ويظل الموت عند الشابي حقيقة مره مبغضة :
حقيقة مره ، باليل مبغضة كالموت لكن اليها الورد والصدر (١)
ويكره الشاعر الموت ، ويقدر رتبة الحياة ، وبراعا السيدة
والناس السوديون ، يدرك ذلك حين اغتال الردى والده فقال :
ما كنت احسب بعد موتك بأبي ومشاعري عياء بالاحزان
اني سأظلم للحياة واحتسي من نهرها المشويع النشوان
واذا التشائم بالحياة ورفضها ضرب من البهتان والبهذيان
ان ابن آدم في قرارة نفسه عبد الحياة الصادق الايمان

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١٨٢ . ٧٣ / ٠٠٠

وأحصت نعمات احمد فؤاد في بحثها عن الشاعر ، انه هتف بالحياة والامل في ديوانه ثلاثئة وخمس عشرة مرة ، ظفرت لفظنة الحياة وحدها بمئة وستة عشر موضعا ، من مثل الاماني ، السرور ، السلام ، ابتسام ، الجمال ، الطروب ، بهجة ، ، نشيد الرجاء ، الانفراج ، خمر الحياة ، الحب ، الشوق ٠٠٠ الخ ، وتتساءل الكاتبة أليست هذه الالفاظ ، لبنات الحياة البناء الآمله الراغبه ؟ (١)

وأجيب نعم بل هي كذلك ، ولو لم يكن الشاعر حريصا على ذلك ، لما وقف يقارع الاستعمار بقصائده ويحارب الجهل والتخلف .

وتستمر الكاتبة فتري ان الحياة لم تغز بثلاثئة وخمسة عشر لفظا فحسب ، بل ان في رصيدها مئة وواحد وستون لفظا آخر ، هي الفاظ القوة والاستشراف في الديوان ، مثل : مجد ، يثار ، الحق ، الحسام ، القوة ، تشتعل ، اليقظة ، أجسج ، يثبر ، الجسور ، اجنحه ، مندفع ، غيب ، اباء ، اضرم ، العز ، وتتساءل الكاتبة أليست القوة والاستشراف من معاني الحياة ، ومن مقوماتها الاصلية ؟ (٢)

وبعد كل ذلك استطيع القول انه لم تكن للشاببي فلسفة - بمعناها العميق - في الصوت ، وان كل ما اثاره هي استفسارات حائرة تركها غائمه تنتظر جوابا ، ولا عجب في ذلك فأهو القاسم شاعر مرعوف الحس والمشاعر ، ليس فيلسوفا .

(١) و (٢) نعمات احمد فؤاد ، شمع وشاعر ، ص ٧٠ ، ٧١ .

٣ - موقف الشابي من شعبه :

فلسفة القوة :

إذا كنا قد توصلنا الى انه لم تكن للشابي فلسفة واضحة في الموت انما هي تأملات وتساؤلات لم يستطع لها جوابا .

تقد كان للشابي من ناحية اخرى فلسفة واضحة ، لا تقبل الشك ، هي فلسفة القوة ، وان البقاء للافضل ، لقد كرس الشابي العديد من القصائد لهذا الفرض ودعا اليه بصراحة ، لقد توصل الشاعر الى ان الحياة صراع بين القوى والضعيف ، والضعيف هو المنهزم دائما .

ان الحياة صراع فهما الضعيف يداس

قرر ان الذل ، هو سبة عار ، لا يرتضيه الكرم .

والذل سبة عار لا يرتضيه الكرام

قام اليأس ودعا الى مقاومته واعتبره موتا ، بل موتا لا يحقق الراحة الابدية ، انما موت يثير الشقاء . ودعا الى اخذ بالجد والاجتهاد والمثابرة في العمل والدأب للوصول الى القام الذي يحقق للامه عزتها ومكانتها .

وللشعب حياة	حينما ، وحينما فناء
واليأس موت ولكن	موت يثير شقاء
والجد للشعب روح	توحي اليه الهناء
فان تولت تصدت	حياته للبلاء (١)

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٥ ، ١٦ .

وانطلاقاً من فلسفة القوة ، التي بها يتحقق مجد الامم وبنيها
دعا افراد شعبه ، الى التحاف العزيمة ، والاخذ بأسبابها ، فهي التي
يخرامها كل جبار ، ويخشاها كل معتد ، وأي شيء أضمر على العزيمة
والغضاء من البأس والقنوط ؟ فالاقبال على الحياة وحبها يقود الى
المجد ، والقنوط يقود الى اللحد .

وفي العزيمة قوات مسخرة يخردون مداها الشامخ الجبل
والناس شخصان ذا يسعى به قدم من القنوط ، وذا يسعى به الامل
غدا الى الموت والاجداث ساخرة وذا الى المجد ، والدنيا له خيول (١)

والشابي الذي احب الحياة ، وكره الموت ، كره كل مسيئات
الفناء ، كره الحروب التي تودي بالانسانية وتذهب المحبة ، وتحل
البغضاء . دعا الى السلام ، واعتبره الطريق الافضل للانسانية ، ولكنه
سلام بعيد عن الاستسلام ، فاذا ما فرضت الحرب على الشعوب ،
فلتنهض ولتقاتل قتال الابطال .

فما الحرب سوى وحشية نهضت	في انفس الناس ، فاقادت لها الدول
وأيقظت في قلوب الناس عاصفة	غام الوجود لها ، وارتدت السبل
فالدعر منتعل بالنار ملتحف	بالهول والويل والايام تشتعل
والارض دامية ، بالاثم ظامية	ومارد الشرف في ارجائها شمل (٢)

وأى شيء أسمى من الحرية ، وأى مشكلة عانتها الامم العربية في
تاريخها المعاصر ، اعظم من مشكلة العبودية ، كبّل المستعمرون الامم

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢ .

وأبناءها ، سلبوا حريتها ، فدعاهم الى الثورة الى انتزاع الحرية من
انياب الذئاب المفترسة .

آمن الشابي بمدأ انساني وعنه الاسم في مختلف عصورها ، ودعت
اليه الاديان على تعددها ، الحرية هي منحة الله للفرد ، التي يجب
الحرص عليها والقتال دونها .

خلقت صليقا كطيف النسيم	وحرا كغور الضحى في سماء
تفرد كالظير اين اندفعت	وتشد وبها شاء وحي الاله
وتسرح بين ورود الصباح	وتنعم بالنور أنى تراء
كذا صاغك الله يا ابن الوجود	والقتك في الكون هذى الحياة
فمالك ترضى بذل القهود	وتحني لمن كبلك الحياة
الا انهض وسر في سبيل الحياة	فمن نام لم تظهره الحياة ؟ (١)

وتظهر فلسفة القوة عنده اكثر ما تظهر في قصيدته - فلسفة
الشعبان القدس - ويبدو انه رمز للمستعمر بالشعبان ، والشحور للشعب
الضعيف المالم . . . لقد كان الشحور يغني طربا منشدا اغانيه
للشمس المشرقة ، وللأعشاب النديه ، تعيش في قلبه السعادة ، ويغمر
نفسه حب الحياة ، لا يضر الحقد ، ولا يظهر البغض .

الشاعر الشحور يرقص منشدا	للشمس ، فوق الورد والأعشاب
شعر السعادة والسلام ونفسه	سكوى سحر العالم الخلاب

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٨٨ . ٧٧/...

ولكن الثعبان يضغطن عليه ، ويحسد عليه عيشه ، أراد ان يصرعه
يصرع السعادة ، يفتال السلام ، يقتل الطمأنينة ، يبديد الحب ، ليجل
محله الدمار ، ينزع السلام ، ليقر الحرب .

ورآه ثعبان الجبال ، فغمته ما فيه من مرج ، وفيض شباب
وانقض مضطئسا عليه كأنه سوط القضاء ، ولعنة الارباب
يفت الشقي فصاح في عول القضا مشلقتا للصائل المنتساب

وقف الشحرور ، امام العدو المترصر ، يصرخ لا يجد سلاحا يشهره
حاول ان يبحث عن الاسباب التي جعلت المجرم يتغرض عليه ، واخيرا
عشر عليها .

وتدفق السكين يصح شائرا	ماذا جنيت انا فحق عقابي
لا شيء الا انني متغزل	بالكائنات مفرد في غايي
التي من الدنيا حنانا طاهرا	وابشها نجوى المحب الصابي
ايعد هذا في الوجود جريمة	اين العدالة يا رفاق شبابي ؟

واخيرا اعتدى الشحرور الى الاجابه ، طرح سؤالاً وأجاب عنه
ان سعادة الضعيف تعتبر جرما عند القوى ، يجب ان تلب ، وان العدل
في هذا الوجود لا يمكن ان يتحقق الا اذا تعادلت القوى وتساوت ، فلا
عدل ولا حق غير مدعم بالقوة .

لا (أين ؟) فالشرع القدس ها هنا	رأى القوى وفكرة الفسلاب
وسعادة الضعفاء جرم ، ماله	عند القوى سوى اشد عقاب
ولتشهد الدنيا التي فنيتهما	حلم الشباب ، وروعة الاعجاب
ان السلام حقيقة مكذوبة	والعدل فلسفة اللهب الخابي

لا عدل ، الا ان تعادلت القوى وتصادم الارهاب بالارهاب (١)

هذه هي فلسفة الشاعر التي آمن بها ، ودعا شعبه الى
اعتناقها ، واتخاذها سنة لحياته .

ولكن ما هي السبل التي سلكها الشاعر ليصل بهذه الحقيقة
الى قلب شعبه ؟ لقد ايقن الشابي ان العدو الاول الذي يجب ان
تصوب اليه اولى سهامنا هو الجهل والتخلف ، وايقن ايضا ان الامه لن
تتحرر الا اذا اخذت بأسباب القوة وعاشت يومها مستفيدة من عناصر
القوة في تاريخها ، نابذة كل غث ، مستغنية عن كل سفاسف ، آخذة
بمركب الحضارة والملم الذي اشرق على الدنيا في عصرها الحديث .

لذا كان اول عدو هاجمه الشابي ، قبل مهاجمته الاستعمار
هو التخلف والجمود ، والقيود في مواطن النذل ، والاستكانة للاحداث ،
لذا فقد نعى على امته وابنائها قلة المفكرين فمهما ، قلة الطامحين
الى مراقبي المجد والسؤدد .

أين يا شعب قلبك الخائف الحساس ؟ أين الطموح والاحلام ؟
أين هم الحياة يدوى حو اليك ، فأين المفكر القلدام ؟

اخذ على شعبه ضياع العزيمة ، واخذ عليهم الضعف والخور ،
وتبدل الشاعر .

أين عزم الحياة لا شيء الا الموت والصمت والظلم
عمر ميت ، وقلب خواء ولم لا تشيره الآلام

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٩٢ .

أى عيش هذا ، وأى حياة رب عيش اخف منه الحمام (١)

الشاعر في هذه المرحلة ، مشفق على شعبه ، متعاطف معه ، بين له مكايين الداء ، علّه يحوّل أسبابها ، أن من أهم المشكلات التي تواجه هذا الشعب ، وتحول دونه والحرية ، هي عدم سماعه لدعاة الإصلاح من بيته ، بل والنهوض لقارعهم ومقاتلتهم .

استمع اليه في قصيدته " تونس الجميلة " :

لست ابكي لعسف ليل طويل أو لريح غدا العفاء مراحه
انما عبرتي لخطب هيسل قد عرانا ، ولم نجد من ازاحه
كلما قام في البلاد خطيب موقظ شعبه يريد صلاحه
أخمدوا صوته الالهى بالعسف اماتوا صداحه ونواحيه
أنا يا تونس الجميلة في لج الهوى قد سمحت اى سباحه
شرعتي حبك العميق وانى قد تذوقت مره وقراحه

ثم ينتقل الشابي بشعبه الى مرحلة ثانية ، هي اشارته ضد الظالم ليشأر لدماء ابنائه المراقه ، ليحرر ارادته المكبلة ، فاذالم ينهض لذلك ، فهو بالموت اجدر ، ، وبالفناء احق .

كل قلب حمل الخسف وما مل من ذل الحياة الارذل
كل شعب قد طغت فيه الدما دون ان يثأر للحق الجلى
خلة للموت بطويه فما حظه غير الفناء الانكل (٢)

ويرى ان الشعب لا ينهض الا اذا نهض فيه المنم ، وهذا لمن يكون الا اذا احب الحياة ، فحبها يتخطى كل الصعاب ، والاموات هم

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٢٥

٨٠ / ٠٠٠

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٠

الذين يألفون القيود ، أما الأحياء ، فانهم قساديون ومستطيعون الفكاهة
منها بالعمل الجاد .

لا ينهض الشعب إلا حين يدفعه عزم الحياة ، إذا ما لم يثبته فيه
والحب يهترق القبراء مندفعاً إلى السماء ، إذا هبت تلابيه
والقيد يألفه الأموات ، ما لبثوا أما الحياة فيبليها وتبليسه (١)
وتبلغ ثورة أبي القاسم أوجها ، ويتضح رأيه في الحياة وحبها ،
ويرسم لنا طريق بلوغها ، في قصيدته المشهورة " ارادة الحياة " ولعل
اسم القصيدة ، يحمل اعطق فلسفة الشاعر " انها ارادة الحياة " فمن
ارادها ارادته ، ومن احبها عمل من اجلها ، وداس الصعوبات التي تسد
الطريق ، واخضع كل شيء حتى القدر ، وأزال ظلمة الليل الحالك ، لتحل
محلها اشراق الصبح ، وكسر الأغلال .

إذا الشعب يوماً اراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

أما أولئك النفر الذي لم يعشقوا الحياة ، فان الحياة ستوصل
أبوابها دونهم ، وسوف يكون الفناء رائدهم .

ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخر في جوها وأندثر
فويل لمن لم تشقه الحياة من صفعة المدم المتصر

أما الأنهزاميون السلبيون ، فهم المنحدرين ، العائشون بين
الشعاب ، وفي ظلمات الكهوف ، يشلمهم المار ، ويدشرهم الذل بدثاره .

(١) أبو القاسم الشابي ، أغاني الحياة ، ص ١١٨ . . . / ٨١

ومن لا يحب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر
ثم يعود مرة أخرى ليشير الى منطلقه ، ويؤكد فلسفة " ارادة
الحياة " .

وقالت لي الارض - لما سألت : " أيا أم هل تكرعين البشر "
"أبارك في الناس اهل الطموح ومن يستلذ ركوب الخطر "
"والعن من لا يماشي الزمان ، ويقنع بالعيش عيش الحجر "
"هو الكون حي يحب الحياة ، ويحتقر الميت مهما كبر "
"فلا الافق يحضن ميت الطيور ، ولا النحل يلثم ميت الزعر "
"ولولا امومة قلبي الرؤوم ، لما ضمت الميت تلك الحفر "
"فويل لمن لم تشقه الحياة ، من لعنة المدم المنتصر " (١)

ثم ينتقل ابو القاسم بشعبه الى المرحلة الثالثة ، مرحلة تهديد
الظالمين المتصلفين بشوكة الشعب ، وكأنني به يريد ان ينزل الخوف
من النفوس ، بعد ان ترسح لديها انها ضعيفة امام عدوهمك وسائل
الفتك والفساد ، وهي ضعيفة لا حول لها بلقائه ، وكأنني به اراد من
هؤلاء المستعمرين ، الذين غرتهم القوة وأعماهم الطمع ، ان يعودوا الى
رشد هم ، ويتنازلوا عن صلفهم ، ليقول ان الشعوب مهما ضعفت الا
انها قادرة على الفتك بهم ، وتصفيتهم .

استمع اليه يخاطب المستعمرين :
يا أيها السادرني غيِّب
يا واقفا فوق حطاسام الحياة

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

مهلاً ففي أنات من دسستهم
صوت رهيب سوف يدوى صداه
بأأيها الجبار لا تنزدرى
فالحق جبار طويل الأناء
يغنى وفي أجفانه يقظة
ترنو إلى الفجر الذي لا تراء (١)

فالسلاح الذي يتسلح به الشاعر ، والذي يهدد به الظالمين ،
هو سلاح الحق ، وأي سلاح أقوى منه ، إذا تسربل به شعب منحه
القوة ، أو معنى في سبيل الحصول عليها .

وفي قصيدته " زئير الماصفه " يقول :
فيما أيها الظلم المصغر خدّ رويدك أن الدهر يبني ويهدم
سيثأر للفرز المحطم تاجه رجال إذا جاش الردى فهم هم
رجال يرون النذل عارا وسبة ولا يرهبون الموت والموت مقدم (٢)

وفي قصيدته " إلى الطاغية " يقول :
يقولون صوت المستذلين خافت وسمع طغاة الأرض (اطش) اضخم
وفي صيحة الشعب المسخر زفرع تخر لها شم العروش وتهدم
ولمعة الحق المضوب لها عدى ودمدمة الحرب الضروس لها فم
إذا التف حول الحق قم فانه يصم أحداث الزمان ويصم

(١) أبو القاسم الشابي ، أغاني الحياة ، ص ٥٨

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢ .

لك الويل يا صرح المظالم من غد
اذا نهض المستضعفون ، وحمسوا
اغرك أن الشعب منفض على قذى
وأن الفناء الرحب وسنان مظلم
ولكن سيأتي بعد لاي نشورها
وينشق اليوم الذي يسترنم
هو الحق يغنى ثم ينهض ساخطا
فيهدم ما شاد الظلام ويحطم (١)

وبعد ، لقد أوضح الشاعر لشعبه فلسفة الحياة ، وانها قائمة
على القوة ، وان الحياة فيها للاقوى ، وان دروب الحياة ، مفتوحة لمن
ارادها ، ثم انتقل ليربهم مواطن الضعف ، ومكاسن الداء ، ثم
دعاهم للثورة ، الثورة على التخلف ، الثورة على الجهل ، على المرض ،
قبل الثورة على المستعمرين .

ثم حاول الشابي ان يبعث العزم في نفوس الامة ، وانها قوية
على ضعفها ، اذا آمنت بحقها ، وأحببت الحياة ، صب جام غضبه على
المستعمرين ، انذرهم وعددهم ، عساه يصيبهم في معنوياتهم .

ولكن هل استجاب الشعب ؟ هل وعي الحقيقة ؟ هل ادركها ؟
هل تمثلها سلوكا ؟

هنا تبدأ المرحلة الرابعة من علاقة الشاعر بشعبه مرحلة
البأس والنقمة ، لم يصل الشعب بعد الى الانفج ، ولم يستطع ان
يلبي داعي ابي القاسم ، فتأخر في ثورته ، واستعجله الشابي ، ولكنه
لم يأبه ، وأراد ابو القاسم ثورة عارمة تدمر كل اسباب الضعف ، ولكن
الشعب الذي لم يتهيأ لذلك توانس ، فغضب منه الشاعر وسخط عليه
واتهمه بالجنون .

انني ارى ، فأرى جموعا جمعة لكنها تحيا بلا ألباب

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٤٣

وعاب فيهم اقتتالهم واختلافهم :

وقضوا على روح الاخوة بينهم جهلا وعاشوا عيشة الاغراب
لعب يحركها المطامع واللهي وصغائر الاحقاد والآراب

وعاب ايضا ادبارهم عن كل دعاء الاصلاح :

الشاعر الموعوب يهرق فنه هذرا على الاقدام والاعتاب
ومعش في كون عقيم ميت قد شيدته غباوة الاحقاب (١)

وحاول الشابي ان يظهر شعبه على مواطن القوة فيه ، وانه
تأدر على السيطرة ، على الحياة ، وان يتجوأ احسن مكان فيها ، لو
حرر ارادته ، واسلم زمامه لقيادة سلبية ، تأخذ بيده ، وتقوده الى
مسالك القوة ، وتحرر افكاره ، من اسار تقاليد عفى عليها الزمن .

أبها الشعب انت طفل صغير لاعب بالتراب والليل مخس
انت في الكون قوة لم تسها فكرة عبقرية ذات أساس
انت في الكون قوة كبلتها ظلمات العصور من اس اس

ان دعوات الشابي ، لم تجد اذنا صاغية فحسب ، بل وجدت
نكرانا وجحودا ، فتعرض الشابي لهجوم عنيف ، شنه عليه ، اولئك
النفر ، الذي يحقق قعر الشعب غناهم ، وتحاسنته سمحاتهم ، اولئك
الناس الذين ساروا في ركب المستعمر ، يساعدونه في قهر الشعب ،
وامتزاز ثرواته .

ونقم الشابي على رجال الدين ، لانهم لم يستغلوا سلطانهم
ووعيمهم لتبهيئة الناس للشورة على الظالمين ، وكان بإمكانهم ان يفصلوا

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٨٤ .

الكثير ، ففي تعاليم الاسلام دعوة للقوة ، ودعوة لقتال اعداء الامه ،
وفي تاريخ الاسلامي ما يصلح لان يكون نمم القدوة لهؤلاء المظلومين .
لم يفعل هؤلاء شيئا من هذا .

سليء الدهر بالخداع فكتم قد ضلل الناس من ايام وقس (١)

حين ادبر الناس عن ابي القاسم ، وحين رموه بالمروق والخروج
عن مألوف امرهم ، حزن وشعر بالشرية بين قم لا يفهمون دعواه .

يا صميم الحياة كم انا في الدنيا غريب اشقى بغيرية نفسي
بين قم لا يفهمون انا شيد فؤادى ولا معاني بؤسي
في وجود مكبل بقيسود تائه في ظلام شك ونحس

شار ابو القاسم على شعبه ، وكان يجب ان يكون رحيما وديعا
مدركا سنة التطور ، وان الشعب حتى تتبنى له الثورة ، لا بد وان
ينضج وبقي ما حوله ، ولكنها ثورة نبعت من رغبة حسه ، ومن حرصه
الشديد على مصلحة شعبه ، شار الشاعر ثورة رومانية " فلم يكن
الرومانتيكي عادة بالمرح ولا بالمفائل ، وانما كان فريسة الم سرير بسبب
الجفوة بينه وبين مجتمع لا يقدر ما فيه من نبيل الاحساس بونتيجة
انهيار آماله الواسعه ، وتعذر ظفوه بالمشال المنشود ، لذا كان الحزن
طابع الرومنسيين وهو حزن يدل على عزلتهم الروحيه ونفورهم من
ادواء المجتمع " (٢)

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٤٦ .

(٢) د . محمد فنيي غلال ، الرومانتيكيه ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ص ٤٣

ثار الشابي على شعبه ، واتخذت ثورته دواعي عده ، فهو
يتهم الشعب بالكفر بالحياة ، وعبادة الماضي ، والتخلي عن الحاضر ،
ووصفه بأنه كاهن الظلام .

انت يا كاهن الظلام حياة تعبد الموت انت روح شقي
كافر بالحياة والنور لا يصفى الي الكون قلبه الحبرى
انت دنيا يظلمها افق الماضي وليل الكآبة الابدى
والشقي الشقي في الارض شعب يومه ميت وما فيه حي

يئس الشابي وتراجع ، وانقلب حبه لشعبه نقمة على عذا الشعب
انه يشور حتى ليمتنى ان يحطم الرؤوس في هذا المجتمع ، وازالته من
عالم الوجود ، لانه لا يصلح للحياة ، وهكذا تكون رسالة الشابي قد
انتهت بسلبية بغضه وبأس قاتل ، ولمضراحي القاسم ، وتفسوز
اعصابه السبب الاكبر في ذلك ، بل لصل نقمته على شعبه كانت
ناجمة من حبه العميق له ، وما اشبه غضب الشابي على شعبه ،
بغضب محب على حبيبته ، فان غضبه نابع من عميق حبه ، وهو ان
غضب ، فهو غضب مؤقت لا يحمل في طياته الحقد ، وان اتسم بالعنف
والاقتذاع .

ايها الشعب ليتني كنت حظا فاعوى على الجدوع بفأسي
ليتني كنت كالسيول اذا سالت تهدد القبور رمنا برمسي
ليتني كنت كالشتاء افشسي كل ما اذيل الخريف يقرسي

ثم انسحب الشابي عن الحياة ، وهجر شعبه ليميش في الغاب ،
وكأنه وكعادة الرومانسيين يجد في الغاب الراحة من شرور المجتمع

الذى صم آذانه عن سماعه .

في صباح الحياة ضمخت الكواهي	وأشرقتها بخمرة نفسي
ثم قدمتها اليك فأعزقت	رحمتي ودست يا شعب كأسني
فتألمت ثم أسكت آلامي	وكفكت من شغوري وحسي
ثم نضدت من أزا غير قلبي	باقية لم يمسها أي انس
ثم قدمتها اليك فمزقت	ورودي ، ودستها أي دوس
ثم البستني من الحزن ثوباً	وبشوك الصخور توججت رأسي (١)

هذه هي الاسباب التي جعلت ابو القاسم يعتزل شعبه الى الغاب ، اوضحها له ، وكأنه يشير الى المبرر ، أو يلتصم العذر ،
ها انا ذاهب الى الغاب علي في صميم الغابات ادفن نفسي

لقد فر من الناس بعد ان تحقق من فشل الرسالة التي نادى بها ، ومن اعراضهم عنها ، . . . وبعد هل كان للشابي رسالة في الحياه ؟ بعد ما علمنا ما كان بينه وبين شعبه . وهل انتقصت نقمة الشابي على شعبه في آخر عهده ، شيئاً من هذه الرسالة ان وجدت ؟؟

نعم كان للشابي رسالة واضحة لا تقبل الشك ، وتعرض الظمن ، رسالته هي مقارعة الاستعمار ، فالشابي يؤمن بالحياة ، ومؤمن بالشعب ورسالته كانت رسالة كل شعب حر ، رسالة كل متحرر . كانت ثورته على المستعمر تكتمع معها الثقاليد المتحجرة ، كانت رسالة الشابي ،

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٠٢ .

رسالة التجديد مع الاحتفاظ بالاصالة القومية ، والاخذ من القديم كل نافع ، كان يريد ان يسير مع الانسانية حيث النور والحقيقة .

والباحث لا يرى ما رآه الدكتور عمر فرج في ان الشابي كانت تعوزه الرسالة حين يقول " والشابي شاعر ناقم يزعم انه يريد ان يؤدي رسالة ولكنه في الحقيقة يحمل معسولا ليهدم به كل شيء في الحياة والناس والبلاد والوطن والامه ... وان اداء الرسالة يقتضي اتجاها واضحا وثباتا على مبدأ (١) .

ولست ادري كيف اتخذ الاستاذ فرج هذا الحكم ، اين هو معول الهدم ؟ هل عوته به بالحياة ودعوته الى الاخذ باساليب القوه ؟ هل هو صموده امام كل التحديات النفسية والمادية ؟ اذا كان الدكتور فرج قد اخذ على الشاعر سخطه على شعبه في اواخر ايامه ، فاعتقد انه سخط ، نبع من حب الشاعر لشعبه ، سخط نبع من مقاومة بعض فئات الشعب لهذا الشاعر ، ولا يعني هذا انني اتعاطف مع الشاعر ، واقف معه ، وكنت اود ان لا يقسو الشاعر على شعبه ، وان يأخذه باللين ، وان يدرك ان الثورة الشعبية ، لا تتحقق في يوم وليلة بل لا بد من نضج الشعب ووعيه ، وهي مسئولية النخبة الواعية في الامة .

٤ - موقفه من الدين :

يرى الدكتور عمر فرج ان الشابي قد خرج في شعره عن الدين وتماليمه ، فهو ينحرف في تشابيهه واستعاراته - احبانا - منحى لا يقره التوحيد ، او هو زندقته في رأى النقاد القدماء (٢) فهو يتكلم

(١) د. عمر فرج ، شاعران معاصران ، ص ١٦٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

عن المرأة فيقول :

انت قدسي ومعبدى ومباحي ورهبتي ونشوتي وخلوتي
يا ابنة النور انني انا وحدي من رأى فيك روعة السجود
وحرام عليك ان تصحقي آما ل نفس تصبو لعيش رفيد
فالاله العظيم لا يرحم العبد اذا كان في جلال السجود (١)

وقال الشابي في احدى وطنياته :

لست ابكي لعسف ليل ظويل او لربيع فدا العفاء مراحمه
انما عبرتي لخطب هيل قد عرانا ولم نجد من ازاحه
كلما قام في البلاد خطيب موقظ شعبه اراد صلاحه
اخمدوا صوته الالهى بالعسف اساتوا صداحه ونواحيه (٢)

وقوله :

ملئى الدهر بالخداع فكم قد ضلل الناس من امام وقس

وقد يكون الدكتور فرج اخذ على الشاعر قوله في البيت الاول " انت قدسي ، ومعبدى " ومثل هذا الكلام مألوف لدى الشعراء ، وليس القصور به العبادة الدينية ، وقد يكون القصور الولاء والحب الدائم وعدم قدرته الخروج عن طوع من احب . بل قد يجد الباحث في البيت الثاني ، روعة الايمان ، لانه رأى في جمال حبيبته قدرة الله سبحانه وتعالى على الخلق والابداع .

اما قوله :

فالاله العظيم لا يرحم العبد اذا كان في جلال السجود
يرى الشاعر ان الله في رحمته لعباده عو القدورة التي يجب ان

يقتدى بها .

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣ . ٩٠ / ٠٠٠

اما في القصيدة الثانية ، قد يكون النقاد ، اخذ على الشاعر / قوله صوته الالهي ، واعتقد ان هذه الصفة لا تضير ابا القاسم لانه يرى ان موت هذا الصالح الداعي الى الخير والصلاح ، كأنه صوت من السماء ، ومثل هذه الاوصاف ما لوفقتي الادب العربي وغيره .

اما في قصيدته الثالثة حين انحى الشاعر باللم على الامام والقس

مليء الدهر بالخداع فكتم قد ضلل الناس من امام وقس

لا يعني هذا انه يلوم وينقد في شخصيتهم الدينيين الاسلامي والمسيحي ، بل قد يكون ذلك حرصا على كلا الدينين ، ودعوة لرجال الدين فيهما ، الى الاخذ بحذافير الدين واصوله وجوهره ، كي يسمو بالناس ...

كما شار رجال الدين على الشابي عندما نشر قصيدته المشهورة .

اذا الشعب يوما اراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد لليل ان ينجلي ولا بد للقيد ان ينكسر

شار عليه رجال الدين ، وأشاروا الصحف والجمعاء ، فكيف

يقول الشاعر " لا بد ان يستجيب القدر " كيف يستجيب القدر لقوة

الشعب ، بينما القدر لا يستجيب الا لقوة الله ؟ لقد اعتبر رجال الدين " الشابي " كافرا ملحدا ، وهاجموه هجوما عنيفا وحاربوه على نطاق واسع (١) .

(١) رجاء النقاش ، ابو القاسم شاعر الحب والثورة ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ،

الطبعة الاولى ، ١٩٧١ ، ص ٦٥ .

والباحث لا يرى في قول الشاعر " لا بد أن يستجيب القدر " خروجاً على الدين ، بل أرى أنها تتفق مع تعاليمه الداعية إلى القوة ، وإن الله وعد عباده في كثير من آياته بالنصر إذا هم عملوا . . .

كما شار عليه هؤلاء لأنه قال في إحدى قصائده مخاطباً حبيبته :

انت انشودة الاناشيد غناك اله الغناء رب القصيد

قالوا عنه انه " وشني " فهو يؤمن " بآله للثناء " ، ومعنى هذا انه يؤمن بآله " للحب " وآله " للمطر " وغير ذلك مما لم تعرفه إلا المصور الوثنية سواء عند العرب أو عند الأفريق ، ومعنى هذه التزعة الوثنية ان الشاعر مشرك لا يؤمن بآله واحد ، وهو بذلك ضد " الوحدةانية الإسلامية " (١)

والباحث لا يرى هذا الرأي ، فان الله عز وجل ، هو آله ، لكل ما في الوجود ، هو آله الحب ، وآله الخير ، آله الغناء ، آله الصرة ، ولكن الباحث يرى ان أبا القاسم كانت تتقابه شورات عاطفية ، لكثرة ما انتابته الدواهي والمتبه الخطوب ، من داء يسكن قلبه ، وموت يتناول كل عزيز ، فكان يجأر لله بالشكوى ، ولكنها شكوى تحكميت فيها العاطفة ، وسيطرت عليها الأعصاب التي ادماها الألم ، شكوى لم تتسم بالصبر الذي حث عليه الدين ، ففي قصيدته " إلى الله " (٢) يقول :

يا آله الوجود هذي جراح في فؤادي تشكو اليك الدواهي
هذه زفرة يمعدها لهم التي سمع الغناء الساهي

(١) رجاء النقاش ، أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة ، ص ٦٥ .

(٢) أبو القاسم الشابي ، أغاني الحياة ، ص ٩٨ .

هذه مهجة الشقاء تنالجيك فهل انت سامع يا الهي

ثم يشير الشاعر الى المصائب التي حلت به فيقول :

انت انزلتني الى ظلة الارض وقد كنت في سباح زاه

انت عذبتني بدقة حسي وتعقبتني بكل الدواعي

بالاسن بالسقام ، بالهم ، بالوحشة ، باليأس ، بالشقاء المتناحي

ويظهر ضيق الشاعر ، واضطراب اعصابه ، وقلة صبره ، حين يقول :

يا رياح الوجود ، سيرى بعنف وتفتني بصوتك الاواه
وانفحيني من روحك الفخم ما يبلغ صوتي آذان هذا الاله
فهو يصغي الى القوى ، ولا يصغي لصوت بين العواصف واه

ثم يقول :

خبروني هل للورى من اله ، راحم - مثل زعمهم - أواه
انني لم اجده في هاته الدنيا ، فهل خلف اقبحها من اله

لقد تمرد الشاعر ، وخرج عن اطوار النفس الموثونة التي تنسج
ببرد اليقين ، ولا تتلظى بنار الشك ، ولكن هل استمر الشاعر في تمرد
هل اتفق مع نفسه وضميره فيما قال ؟

استمع اليه يعلن التوبة ، ويشعر بتبكيته الضمير ، انه يماود
اللجوء الى الله ، ويطلب منه العفو ، ويرجو السماع ، عما ارتكب
من اثم .

ما الذي قد اتيت يا قلبي الباكي ؟ وماذا قد قلته يا شفاعي
يا الهي قد انطق الهم قلبي بالذبح كان .. فاعتفريا يا اله

قدم المأس والكآبة آست قلبي المتعب ، الغريب الواهي
فتشظى ، وتلك بعض شظاياها ، فسامع قنوطه المتناهي

ثم يعود ليؤكد ان قلبه هو معبد الحق ، يعمره الايمان بنور
الله ونقائه .

فهو يا رب معبد الحق ، والايمان والنور والنقاء الالهي
وعوناي الجمال ، والحب ، والاحلام ، لكن حطمته الدواعي (١)

عذا التمرد الرومنسي ، وراءه عقيدة راسخة بوجود اله ، وايمان
بالعالم الآخر ، الذي تتحقق فيه العدالة ، وتجزى كل نفس بما عملت ،
كتاب ابو القاسم الشابي رسالة الى صديقه الاستاذ محمد الحليوي ، يشكو
فيها عرض قلبه ، يظهر فيه ايمانه بالبعث والنشور " لا تألم يا صديقي
لاخيك ، فان قلبي هو منبع آلامي ، في عذا العالم ، ومن يدري ؟
لعله سيكون منبعا لمثل حياته الآلام في العالم الآخر . (٢)

لقد آمن الشابي برحمة الله ، ولجأ اليه شاكيا حاله ، كلما غصه
الآلم ، او تكالبت عليه المصائب . قال يشكو الى الله مريض والدء ، وما
الحقه به من شقاء وألم "آه . رب ! اشقيتني وما اشقيت احدا من
عبيدك ، رب ! عذبتني وانا عبدك الذي لم يجذف باسمك ، ولا كفسر
بنفسك ، رب ! رحماك ! فان عبد القدر علي شديد " (٣)

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٠١ .

(٢) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته - شعره ، ص ٦٠ .

(٣) من رسالة بعث بها الى صديقه محمد الحليوي وردت في كتاب ابو القاسم محمد كرو
المرجع السابق ، ص ٦١ . ٩٤ / ٠٠٠

ويظهر ايمان الشابي العميق بالله حين يجد ان الدنيا ولهوها
وكل ما بها من جمال ، وأسباب لذة ومتعة ، لا تستهويه عن عظمة الله .

ان من اصفى الى صوت المنون وصدى الاحداث

ليس تستهويه الحان الطيور

بين ازهار الربيع الساحرة

وابتسامات الحياة الساحرة عن جلال الله (١)

ولعل احسن ما يوضح هذا الامر ، ويؤكد رسوخ العقيدة عند
أبي القاسم ، هو رد ابي القاسم نفسه على سؤال وجهه له صديقه
محمد الحليوي يطلب فيه ابداء رأيه في بيت قاله الشابي :

حاملًا كالأله قلبًا كبيرًا فيه ما في الوجود من اكوان

فأجابه الشابي :

" ان الفنان يا صديقي لا ينهني ان يصفني لغير ذلك الصوت القوي
العميق ، الداوي في اعماق قلبه ، اما اذا اصفى الى الناس وما يقولون ،
وسار في حياته الدنيا بأقداسهم ، وآها بآبصارهم ، وأصفى اليها بأذانهم
فقد كفر بالفن وخان رسالة الحياة .

ولو شئت ان اسوق الايات التي لي ، على غرار بيتك هذا ، في
التشبيه بالاله ، لاكثر ، وخرج بي القلم عن غايته ، ولكنك ستري ذلك
في الديوان ان شاء الله ، وانني لاعلم ايمانًا بالله من كل احد ،
حينما اعبر بهاته التمايز الكافرة في نظراؤلك الناس ، فالالوهية وما
نعرف منها هي رمز للمثل العليا ، التي نصبو اليها بأرواحنا ، وتشخص
اليها بآبصارنا في حياته الحياة ، ولذلك اذا اردنا ان نعبر عن معنى

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٤٩

نحس له بجلال المثل الاعلى وسموه ، فانما سيلنا في ذلك ان نفرغ عليه رداً للوهجة التي هي اسمى ما تتصوره الانسانية من جمال المثل الاعلى وجلاله ^(١)

٥ - موقفه من القديم ودعوته الى التجديد :

تظهر دعوة الشاذلي الجديد ، ومحاربه بعض مظاهر القديم في كتابه " الخيال الشعري عند العرب " وقد القاء على شكل محاضره في القاعة الخلدونية بتونس عام ١٩٢٩ .

والكتاب يحتوى ثمة وأربعين صفحة من القطع المتوسط ، تسع صفحات منها اهداء ، وكلمة المؤلف ، والقائمة . اما الصفحات الباقية فقد تناولت الموضوعات التالية :

١ - الخيال : تعريفه ونشأته من وجهة نظر الكاتب

٢ - الخيال الشعري والاساطير العربية

٣ - الخيال الشعري والطبيعة في رأى الادب العربي

٤ - الخيال الشعري والمرأة في رأى الادب العربي

٥ - الخيال الشعري والقصة في رأى الادب العربي

٦ - فكرة عامة عن الادب العربي

٧ - السرح العربية

فهو حين تكلم عن : الخيال الشعري والاساطير العربية كان كل وكده ان يثبت ان الخيال العربي كان قاصراً عن اختراع الاساطير والملاحم

(١) محمد الحليوي ، مع الشاذلي ، سلسلة "كتاب البحث" تونس ١٩٥٥ ، ص ٦٢ .

بمعناها الواسع كما عرفها اليونان القدماء ، ولكنه لا ينفي وجود اساطير عربية جاهلية الا انه يرى انها ضحيلة الخيال ، لا تدل على تعمق فلسفي في معنى الحياة ، والنور الى ما وراء الطبيعة فهو يقول :

"ورأيت في هذه الاساطير هوانها لاحظ لها من وضاعة الفن واشراق الحياء ، وان من المحال ان يجد الباحث فيها مألفا ان يجده في اساطير اليونان والرومان ، من ذلك الخيال الخصب الجميل ، ومن تلك العذوبة الشعرية التي تتفجر منها الفلسفة الفضة الناعمة تفجر المنبع العذب^(١)" ثم يعرض لعدد من الاساطير العربية ، مثل اسطورة الفول ، واسطورة الهامة ، واسطورة شياطين الشعراء ، واسطورة النجوم ، ليقول معقبا عليها " فهل رأيت فيما تلوته عليكم من اساطير العرب واحدة تشرق بالفن والحياة ، كما يشرق الكوكب بالنور الجميل والوردة بالعطر الازرج ؟ وكذلك كانت اساطير العرب وثيمة جامدة جافية لسم تفقه الحق ، ولا تذوقت لذة الخيال ، وأوهام معبردة شاردة لا تعرف الفكر ولا اشتملت على شيء من فلسفة الحياة^(٢) "

ومثل هذا الموضوع عرض له الكثيرون قبل ابي القاسم وبعد ، واحب ان اشير هنا الى محاضرة القاها الدكتور سليمان رميح ، على طلبة السنة الاولى للماجستير في الجامعة الازهرية بعنوان " خواص الشعر الجاهلي " الشعر الجاهلي غنائي لا قصصي ولا تشعيلي " نفس فيها الدكتور وجود قصص جاهلي بالمعنى الحديث للقصص ، ونفس وجود ملاحم شعرية كذلك التي عرفها اليونان والرومان . مع ان مادة هذه القصص

(١) و (٢) ابو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، الشركة القومية للنشر

والتوزيع ، تونس ، ١٩٦١ ، ص ٣٢ ، ٣٨ .

تسند توافرت في الجاهلية ، هذه حروب العرب فيما بينهم ،
وبين الفرس والاعباش ، ثم حروبهم الداخلية التي جعلت أيامهم
سلسلة وقائع وأيام ، وهذه أساطيرهم العادية الذاهبة الى ابعاد
أفوار الماضي ، وهؤلاء أبطالهم من الانس والجن ، وهذه تقاليدهم
ومذاهبهم الخيالية والوهمية كلها مادة خصبة كافية تمسك
"لهوميرهم" ان وجد ان ينظم اليسانة عربية حظيرة ، ويرد الدكتور
ربيع عجز العرب عن ذلك الى اسباب تتعلق بالشاعر العربي نفسه ،
وبالشعر العربي وخواصه ، وبالشعب العربي وحياته الاجتماعية
ومواهبه النفسية " (١)

وهكذا يتضح ان هناك من اتفق مع ابي القاسم في هذا
الموضوع ولكن مع تلاف في الاسلوب وطريقة العرض .

أما في موضوع "الخيال الشعري والطبيعة في رأى الادب العربي" :

نجد الشابي يقرر ان الشاعر الجاهلي يشكل غاش ، والعربي بشكل
عام لم يتفاعل مع الطبيعة ، ولم يتمثل احياءاتها ، وعرض لطائفة من
شعر الطبيعة في العصرين الجاهلي والاموي ، وعقب على ذلك بقوله
" فقد رأيت ان ادب هذين العصرين قد كان لا يحضر لوصف مناظر
الطبيعة الا اذا دعت اليها الضرورة ، دون ان يسهب في الوصف ، ويشبع
القول ، وكيف انه اذا تحدث عن ظواهر الطبيعة اسهب في القول وأطال
البيان ولكنه في ذلك لا يتحدث عن الطبيعة بشغف الشاعر ، وخشوع المتعبد
بل يتناولها تناول القاص الذي لا يحفل بجلال المشهد أو جماله وانما الذي
يهمه ان يصفه كما رآه ، دون ان يخلق عليه حلة من شعوره أو عبقا من عواطفه .

(١) د . سليمان ربيع ، محاضرة القاها على طالب السنة الاولى للماجستير ،

في جامعة الازهر ، للعام الدرا سي ١٩٧٣ / ٧٢ ، ص ٨٥ - ٩٨ .

٩٨ / ٠٠٠

ويعمل ذلك بقوله : " وان لهذا علته المعقولة ، فقد عاش العرب في وسط لا يعرف سحر الجمال الطبيعي ، فلم يتحدث ادبهم عن هذا الجمال ، وكيف يتحدث عنه ، وعولم يعرفه ؟ ثم عولم يتحدث عن الطبيعة بلهجة المعجب المأخوذ ، لان الطبيعة لم تخلع على ارضهم من نضارة الحسن ما يحرك في قلوبهم ادق وشائج الحسن ، ويفتح قلوبهم لتذوق ألوان الجمال فظلت قلوبهم موصدة لا تعرف عاتيه اللذة ، ولا تفقه ذياك الشهور ، زيادة عن انهم لم يختلطوا بغيرهم من شعوب الارض اختلاطا كبيرا يلطف الطبع ويرقق المزاج " (١)

ثم يعرض لنماذج من الشعر العباسي عند شعراء اجدادنا وصف المناظر الطبيعية من مثل ابي تمام ، والبحتري ، وابن الرواسي ، ويعلق على ذلك بقوله " ولكن هذا الفن الوليد لم يكثر كثرة مطلقة في الادب العباسي " (٢)

ويعرض لنماذج من شعر الطبيعة الاندلسي ويؤكد كثرته ، الا انه اخذ عليه وصفه الحسي للمنظر دون الاندماج فيه او تشخيصه .

وبعد ذلك يعرض نموذجين لشاعرين من شعراء العرب ، أولاهما " للامرتين " وأخراهما " لجيتي " ويقارن بينهما من جهة وبين نماذج عربية من جهة أخرى .

ويصل الى نتيجة " ان شعراء العربية لم يعبروا عن مثل عاتيه الاحساسات الشعرية العميقة لانهم لم ينظروا الى الطبيعة نظرة الحسي

(١) ابو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، ص ٥٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٢ . ٩٩ / ٠٠٠

الخاشع الى الخبي الجليل ، وانما كانوا ينظرون اليها نظرتهم الى رداء منمّق ، وطراز جميل ، لا تزيد عن الاعجاب البسيط (١)

والباحث لا يستطيع ان يقت امام رأى الشابي ويناقشه مناقشة تفصيلية لان ذلك خارج عن نطاق دراسته ولكن الذى أرى ان انوه به ، ان مقارنة الشاعر بين شعراء عرب عاشوا في العصر الوسيط بشعراء غربيين عاشوا في القرن التاسع عشر ، اختلفت بيئاتهم الطبيعية والاجتماعية والنفسية هي مقارنة ليست عادلة ، لم تراعى تأثير الزمان والمكان . كما ارى ان الشاعر متأثر بآراء المدرسة الرومنسية التي كان لامرئين علما من اعلامها ، والتي تسبغ على الطبيعة الحياة ، وتدير معها حوارا تخاطبها ، وتسمع عصفها ، تذبذب فيها ، وتشخص مناظرها ، ولكن الادب المصري في عصوره لم يقدم نماذج من ذلك . . .

أما في موضوع "الخيال الشعري والمرأة في رأى الادب المصري :

يرى ابو القاسم الشابي ان المرأة حظيت بقسط وافر من اهتمام الشاعر المصري ويرى " انهم تجاوزوا في التفتيش بالمرأة كمل حد حتى أصبحت هي اللحن الجميل الذى تستهل به القصائد ، وهي الكلمة السحرية التي تنفتح لها كنوز الشعر ، حتى أصبحت عند كماله الشعر عند قدماء اليونان ، لا يبدأون الشعر الا بنجواها " (٢)

ولكنه يأخذ عليهم اهتمامهم بجسد المرأة والمتعة بها ، ووصف محاسنها الظاهرة دون الفؤاد الى روحها . ويقسو الشابي قسوة عنيفة

(١) و (٢) ابو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، ص ٦٢ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤

على الشاعر العربي وعلى الادب العربي حين يقول :

"اجمل فان نظرة الادب العربي الى المرأة نظرة دنيئة سافلة
منحطة الى اقصى قرار المادة ، لا تفهم من المرأة الا انها جسد يشتهي
ومتعة من متع العيش الدنيء * ٠٠٠ فالشاعر العربي لا يتكلم عما وراء
جسد المرأة من تلك المعاني العميقة السامية ، ولكنه مجيد كل الاجادة
ان اراد ان يحدث عن قدها الا عيف المشوق ، وعن طرفها اللامع الوسنان
وعن وجهها المتورد المنضور وما الى ذلك من تلك الاوصاف المادية
اللقاء امام كل رائج وغاد" (١)

ثم يعرض نماذج شعرية من الغزل الحسي العربي ، ليمسود القول
"فنظر الادب العربية الى المرأة كنظرها الى الطبيعة او ادنى ، لا سمو
فيه ولا خيال ، وانما غوى مادي محض لا يكاد يرى فرقاً بين المرأة
والسرداء وكأس من الخمر ، فالمرأة تتخذ لاشباع شهوات الجسد ، والرداء
يقي الجسم ساجرة الصيف ، ويدفع عنه عادية الشتاء ، وكأس الخمر
يشلن به آناء الفراغ" (٢)

ولكن اذا كانت هذه مأخذ الشابي على شعراء العرب فلي
موقفهم من المرأة فما هو الموقف الذي يريده ؟ أو ما هي نظرة الشابي
للمرأة ؟ انه يود ان يتفنى العاشق بجمال محبوبته الروحي ، لا يتفنى
بتلك المرأة التي تضم وتشم ثم تتصوح وتذوى . يود ان يتكلم العاشق
عما وراء جسد المرأة من شعور سماوى رقيق ، وعاطفة ندية ساجية ،
واحلام عذبة ستحبه تتألق سناء وبهجة ، وتشمل العالم كله بالعطف
والحنان" (٣)

(١) و (٢) و (٣) ابو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، ص ٧٣ ، ٧٤ ،

٧٧ ، ٩٠ ، ٩١ .

ولكنني قبل ان ابدى رأيي ، أود أن أسأل سؤالا ، هل التزم الشابي بدعواه ؟؟ هل نظر الى المرأة نظرة روحية فحسب ؟؟ ألم يتغزل الشابي بمفاتن محبوبته الجسدية ؟؟ ألم يلد بمتعة جسدية منها ؟؟ دعونا نقرأ بعض الابيات من قصيدته تحت الفصوص . (١)

ما ارق الشباب في جسدك الفخر وفي جسدك البديع الثمين
واق الجمال في طرفك الساعي وفي ثغرى الجميل الحزين
والذ الحياة حين تغنين فأعني لصوتك المحزون

احب الشاعر فتاته ورناء اليها ، ثم اشتى قبلة ، بل قبلها :

قالت الحب ثم غنت لقلبي قبلا عبقرية التلحين
قبلا علمت فؤادي الاغاني وأنارت له ظلام السنين

ولما أفاق الشاعر من متعة القبلة الحارة قال :

وأقننا ، ققلت كالحالم المسحور "قولي ، تكلمي ، خبريني"
اي دنيا مسحورة أي رؤيا طالعتني ، في ضوء هذي الصيون

ثم يقول :

أي خمر رشفت ، بل أي نار في شفاء بديعة التكوين
أي اثم قدس قد لبسنا برده في مائنا الميمون

ثم يعود ينادي محبوبته :

قبليني واسكري ثغرى الصادي وقلبي ، وفنتني وجنوني
آه ، ما اعذب الغرام واحلى رنة اللثم في خشوع المكون

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص (١٢) .

ثم ينهي قصيدته ، معبرا اجمل تعبير عن لذة اللقاء :

وسكرنا هناك ، في عالم الاحلام تحت السماء ، تحت الفسوف
وتواري الوجود عنا بما فيه وغبنا في عالم مفتوحون
ونسينا الحياة ، والموت والسكون وما فيه من منى ومنون

ان رأى الشابي في المرأة - الذي سبق ذكره - هو مثالي
بعيد عن الواقع ، فالمرأة عنده خير كامل وطهارة كامله ، ونور شفاف
يهبط على حياة الانسان فيحمل اليه كل ماني السعادة الروحية العميقة
لم يعرف الشابي ابدا الاعماق التي عرفها " المزاج الواقعي " والذي
ينظر نظرة انسانية الى الحياة لا نظرة " ملائكية " مبنية على الخيال ،
فالنظرة القديمة على المرأة على انها كائن حي تابع للرجل نظرية
خاطئة ، ولكن النظرة المقابلة ايضا والتي تعتبر المرأة كائنا اعلى من
الكائن الانساني كائنا شفافا يوزع السحر ويشع منه النور ، هذه
النظرة ليست صحيحة بصورة مطلقة ، فالمرأة كائن انساني ، وعضو في
المجتمع وينطبق عليها ما ينطبق على الرجل من مقاييس الخير
والشر (١)

اما موضوع - الخيال الشعري والقصة في رأى الادب العربي :

فقد خلاص منه بأن العرب لم يعرفوا القصة الشعرية أو النثرية بمعناها
الفني ، سوى بعض القصص الشعرية عند امرئ القيس ، وعمر بن ابي ربيعة
والتي تحققت فيها - خاصة عند عمر بن ربيعة - بعض الشروط في

(١) رجاء النقاش ، ابو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة ، ص ٦٩ .
١٠٣ / ٠٠٠

القصة الحديثة . وإن القصص النثرية ، لم يعرفه العرب إلا بعد ترجمة
- التاليل ولبله - و - كلية ودمنه - (١)

ولعل أخطر موضوع هو - فكرة عامة عن الادب العربي - :

وكان خلاصة لدراسة عن الموضوعات السابقة ، وانتهى بأحكام قاسيه ، وصم
فيها الادب العربي بأنه " مادي لا سموفيه ولا المهام ولا تشوّء الى
المستقبل ، ولا نظر الى صميم الاشياء ولباب الحقائق ، وانه كلمة ساذجة
لا تعبر عن معنى عميق بعيد القرار ولا تفصح عن فكريته بل بأقصى
ناحية من نواحي النفوس ...

وحاول ابو القاسم ان يبرر قوله ، وفي ذهنه ان كلامه لن يلقى
تأييدا من الجميع وان فئة من انصار القديم ستنهض لمناوئته .

" على اننى حين اقول هذا الذى قد يراه بعض الناس خطيئة
لا تنفر ، لا انكر ان الادب العربي قد اجاد ايما اعادة فيما تخصص فيه
من وصف المظاهر البادية وما بينها من تخالف أو تآلف أو تشابه أو
تنافر ، بل ربما فاق كثيرا من الاداب الاخرى في هذا الصدد ، ولا
أقول ان الادب العربي جامد ميت لم يمثل منازع تلك الشعوب التي
عاش بينها تمثيلا صحيحا ولا تقدم لها غذاءها الروحي الذي تتطلبه
اعواؤها ومشاعرهما ، لان الادب العربي كان في جميع المصور التي
تحدثنا عنها ادبا حيا صحيحا فياض بكل ما تصبو اليه آمال تلك
الشعوب من صور الحياة ومشاكلها المختلفة " (٢)

(١) و (٢) ابو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، ص ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ،

إذا كان هذا هو رأي أبي القاسم في الأدب العربي ، وأنه أدب
حي عبر عن مشاعر الأمة وأحداها ، وحمل فكرها ، ونوه باتجاهاتها ،
فما الذي يريده أبو القاسم هنا ؟

أنه يرى أن الأدب العربي القديم خدم عصره ، وعبر عن نفوس
أصحابه ، ونحن بالتالي يلزمنا أدب يخدم عصرنا ، ويعبر عن نفوسنا
"لهذا لا ينبغي لنا أن ننظر إلى الأدب العربي كمثل أعلى للأدب الذي
ينبغي أن يكون ، ليس لنا إلا احتذاؤه ومحاكاته في أسلوبه وروحته
ومعناه ، بل يجب أن نعدّه كأدب من الأدب القديم التي نحبب بها
ونحترمها ليس غير ، أما أن يسمو هذا الإعجاب إلى التقديس
والعبادة والتقليد فهذا ما لا نسمح به لأنفسنا ، لأن لكل عصر حياته
التي يجب أن ، ولكل حياة أدبها الذي تنفخ فيه من روحها
الشعبي (١)

وكان ما توقعه الشاعر ، فهو هجوم هجومًا عنيفًا ورسي بمحاربة الماضي
وأجداده وعقوق آبائه وأجداده ، وبالشورى على القبايس السائدة ، والطرائق
الذائقة ، وبالسخرية من التراث المقدس الجليل ، وتشويهه بحاسنه ،
ومسخ جماله ٠٠٠ وقد نقده الكثيرون في داخل تونس وخارجها ،
ولعل أشهرهم الدكتور مختار الوكيل ، ولكن كيف دافع الشاعر عن
نفسه ؟ وما هي المبررات التي ساقها ، لنسمع ما قاله رداً على نقد
الدكتور مختار الوكيل " أنني إذا كنت أدمو إلى التجديد الأدبي ، وأعمل
له ، فإن ذلك لا يدفعني إلى الهزء والسخرية بأدب الأجداد ، كما

(١) أبو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

قد حسبت ، بل انني لأؤمن بكل الايمان بما فيها من جمال فني وسحر
قوى ، واعتقد انها آتتني صورها الحية لاجدادنا كل ما طمحت اليه
اشواقهم ، من غذاء معنوي دسم ، ولكني أؤمن الى جانب ذلك ان في
الحياة آفاقا مجهولة ساحرة ، غير ما في الادب العربي من آفاق ، وان
هذا الادب قد شهد ضلة آباءنا الروحية ، فانه لما جاز كل العجز عن ان
يشبع ما في ارواحنا من جوع وعطش وطمح ، وانه اذا كان لزاما علينا
ان نعجب بهذا الادب ونفخر به كحلقة من سلسلة ذاتيتها العربية
وكنجم زعبي نرجع اليه كلما اردنا ان نصوغ افكارنا حليها الساحر
الجميل ، فان ذلك الاعجاب لا ينبغي ان يثقل في نفوسنا الى تقديس
عبادة فجود ، فاطباق لا بصارتنا عن كل ما في السماء من اشعة
ونجم (١) .

ولكن هل استطاع ابو القاسم ان يفلت من زمام القديم ، وان لا ينج
على منواله ، ويستعير معانيه ؟ " انك تجد في بعض مقطوعاته ما
يذكرك بالمتنبي ، في ارساله الحكمة السائرة ، وبأبي العلاء في ارتقائه
الى سر من اسرار الحياة فهو يقول في مقطوعة المجد :

يود الفتى لو خاض عاصفة الردى	وسد الخمس المجر والاسد الوردا
ليدرك امجاد الحروب ولو درى	حققتها ، ما رام من بينها مجدا
فما المجد ان تسكر الارض بالدا	وتركب في هيجائها فرسا نهيدا
ولكنه في ان تصد بهمة	عن العالم المرزوء ، فيض الاسى صدا (٢)

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته ، شمره ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٥٦ . ٠٠٠ / ٦ .

فأنت تجد في هذه الابيات ما يذكر بك بشعر المتنبي ، في وصف
مشارك سيف الدولة " فخور عاصفة الردى " و " صد الخمس المجر " و " الاسد
الورد " لم تكن من ابتكار الشاعر بقدر ما هي تقليد للمتنبي في قوله :
ولا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد الا السيف والفتك الهكر

وانت حين تقرأ قوله " سر مع الدهر "

سر مع الدهر لا تصدك الاحوال ، او تغزعك الاحداث
سر مع الدهر كيفما شئت الدنيا ، ولا يخدعك النفاث
فالذي يرهيب الحياة شقي ، سخرت من مصيره الاجداث (١)

فيه تقليد للحكمة عند المتنبي وأبي تمام والمصري ، فالترام الدهر
شيء واضح في الادب القديم .

ومع ان الشابي هاجم القديم الا انه ظل رهين اساره ، فهو لم
يستطع الافلات من الموازين الشعرية القديمة ، وقد بلغ من حفاظه على
القديم انه كان يعمد الى لون من اللون الممارشه ، فحين تقرأ قصيدته
" مفعلة من كتاب الدعوى " ومثلها :

غناه الامس وأطربه وشجاء اليوم فما غده ؟

تذكرنا بقصيدة الحمري الشهيرة :

يا ليل الصب متى غده اقيام الساعة موعده ؟

بل انك تجده يقتبس مصاني القدماء ، فيقول من القصيدة نفسها :

يا للأيام فكم سمرت قلبها في الناس لتكده
عي مثل الماهر عاشقها تسقيه الخمر وتطرده

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٥٢ .

تعظيمك اليوم حلاوتها كالشهد ليسلمها غده (١)
تذكرنا بما قاله الشريف الرضي في رثاء أمه (٢)

وخلائق الدنيا خلائق موسى للمنع آونة والاعطاس
طورا تبادلك الصفاء وتارة تلقاك تنكرها من البغضاء

٦ - آثار الشابي الادبية :

ترك الشابي آثارا أدبية ونثرية وشعرية ، أهمها :

(١) ديوانه أغاني الحياة :

ويقع في ثثة وأربع وتسعين صفحة قياس $15\% \times 22\%$ ، ويضم تسعين قصيدة ، ومقطوعة شعرية ، قدم له أخوه محمد أمين الشابي ، طبع الديوان في مصر عام ١٦٥٥ ، التزمت بطبعه ونشره ، دار الكتب الشرقية .

اختار الشابي لديوانه اسم " أغاني الحياة " واعتمر بطبعه في مصر بإشراف وتقديم صديقه الدكتور أحمد زكي أبو شادن " وأعلن أبو شادي في عدد يناير ١٩٣٤ من أعداد مجلة أويسلو ، قرب ظهور ديوان الشابي " أغاني الحياة " إلا أن مرض الشابي ووفاته بصد ذلك في التاسع من أكتوبر عام ١٩٣٤ حال دون ظهوره آنذاك . (٣)

- (١) أبو القاسم الشابي ، أغاني الحياة ، ص ١٠٦ ، ١٠٢ .
- (٢) د . إبراهيم السامرائي ، نصوص ودراسات عربية وإفريقية في اللغة والتاريخ والأدب وزارة الاعلام ، مديرية الثقافة العامة العراقية ، سلسلة الكتب الحديثة ص ٣٦-٣٨ .
- (٣) د . محمد عبد المنعم خفاجي ، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه ، الحلقة الأولى ، دار الطباعة المحمدية ، بالأزهر ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٢٥٢ .

وقبل ان الشابي كان ينسوي ارسال ديوانه لصديقه ابي شادي في نفس اليوم الذي توفي فيه . (١)

مات الشابي والديوان ينتظر من يقوم بضمه وتوزيعه ، وانتظره عشاق الشابي بفارغ الصبر ، ولكن الديوان لم ينشر الا عام ١٩٥٥ بعد احدى وعشرين سنة من وفاة صاحبه .

وانتقد الديوان في اخراجه ، الكثير من مميزات الديوان الجيد ولعل اهمها افتقاده تاريخ القصائد ، التي تتيج للدارس تتبع مراحل التطور التي مر بها ابو القاسم في حياته الادبية ، مع ان ابا القاسم كان قد رتب قصائده وفقا لتواريخها ، وظهر ذلك في رسالة ارسلها الى صديقه محمد الحليوي بتاريخ ١٩/٢/١٩٣٣ ، قال فيها " أما الآن فاني انتخب القصائد التي سأشرها فيه ، واجمع تواريخها لارتبها على حسبها . (٢)

كذلك فان الديوان ينقصه التوسيب والترتيب ، فلم ترتب القصائد فيه وفق اجمدية القوافي ، أو وفق موضوعاتها ، أضف الى ذلك اخفاء الطباعة المديدة . . .

(٢) الخيال الشعري عند الصرب :

محاضرة القاها الشاعر تحت اشراف النادي الادبي ، التابع لجمعية

(١) ابو القاسم محمد كرو ، آثار الشابي ومداه في الشرق ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت الطبعة الاولى ، فبراير ١٩٦١ ، ص ١٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩ . ١٠٩ / ٠٠٠

قدماء خريجي المدرسة الصادقية في تونس، وكان قد القاها في
قاعة الجمعية الخلدونية يوم ٣٠ شعبان ١٣٤٧ - ١٩٢٩ .

ويقع الكتاب في ثلثة وأربعين صفحة ، من القطع المتوسط ، وطبع
الكتاب في نفس السنة ، وتولت نشره " دار المغرب " للطبع والنشر
في تونس ، لصاحبها الاستاذ زين الماهدين السنوسي ، وهو
الذي كتب مقدمته .

واعيد طبع الكتاب عام ١٩٦١ ، بإشراف الشركة القومية للنشر
والتوزيع بتونس .

وموضوع الكتاب هو دراسة نقدية مقارنة بين الخيال الشعري عند
المغرب وعند الأوروبيين .

(٣) القبيرة :

رواية غير منشورة ، ذكرها الاستاذ كرو ، نقلا عن الاستاذ زين
الماهدين السنوسي ، في كتاب الأخير " الادب التونسي في القرن
الرابع الهجري " (١)

(٤) جميل بهنسه :

قصة جميلة ، موجودة اليوم عند شقيقه الاستاذ أمين الشابي .

(٥) شعراء المغرب العربي :

دراسة لكتاب الاستاذ محمد المباسي القباچ - الادب العربي في
المغرب الاقصى - تناول الشابي الجزء الخاص بالشعراء الشبان

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته ، شعره ، ص ١٣٦ . ١١٠ / ٠٠٠

بالدراسة والتحليل ، ليلقيها محاضرة في النادي الادبي ، ولكنه
لم يلق في النادي من يستمع اليه ، فتركها مخطوطة .

(٦) يوميات الشابي :

وهي مجموعة من المذكرات اليومية كتب فيها الشاعر خواطره ،
وهي موجودة عند صديقه الاسنان ابراهيم ابورقمه بمدينة صفاقس .

(٧) رسائل الشابي :

كان قد وجهها لاصدقائه ، وهي تحمل الكثير من وجهات نظره
ومن اشهر اصدقائه الذين تبادل معهم الرسائل :
محمد الحليوي ، احمد زكي ابوشادي ، ابراهيم ناجي .

(٨) الادب العربي في العصر الحاضر :

دراسة قصيرة تقع في احدى عشرة صفحة ، قدم بها ديسوان
" الينبوع " للشاعر ابي شادي ، ضمنها آراء في الادب الحديث
ورأيه في الشاعر الدكتور احمد زكي ابوشادي .

(٩) السكر :

مرحية ذات فصلين .

(١٠) الهجرة الحمديدية :

محاضرة ألقاها الشاعر في " نادي الطلاب " بـ (نموزر " بمناسبة
ذكرى الهجرة الحمديدية في سنة ١٣٥١ هـ .

(١١) مقالات مختلفة :

نشرها في المدييد من الصحف العربية في صروتونس أهمها

- (١) النفس التائهة
- (٢) اللحظة الاسلامية الحاضرة
- (٣) الشعر ماذا يجب ان يفهم منه وما هو مقياسه الصحيح
- (٤) ايها القلب
- (٥) اغنية الالم
- (٦) صفحات دامية من حياة شاعر
- (٧) روح شائرة
- (٨) لحظة الاحساس واثرها في الفرد والجماعة
- (٩) الشعر والشاعر عندنا
- (١٠) لصويرة الشعر
- (١١) الفنون والنفس العربية (١)

* * *

(١) اعتمدت في موضوع آثار الشابي على ما أورده ، ابو القاسم محمد كرو ، في كتابه

الشابي حياته ، شعره ، ص ١٢٠ - ١٣٢ . ١١٢ / ٠٠٠

الباب الثاني

شعره وشاعريته

الفصل الاول

١ - تجربته الشعريه

٢ - منزلته الشعريه

١ - تجربته الشعرية :

أ (مفهومه للشعر :

لعلّ غير ما نبدأ به حين نتحدث عن تجربة الشابي
الشعرية ، ان نتعرف على مفهومه للشعر ، وأن نعترف
مقاييسه عنده ، هل الشعر في رأيه هو كل كلام موزون
مقفى ، أم أنه احساس يختلج في نفس الشاعر فيعبر عنه هل الشعر
عنده هو تلبية لمناسبة دعوي للمساهمة فيها ؟ أم أنه تلبية
لاساس اعتمل في صدره ؟ دعونا نستمع اليه في قصيدته
" شعري " (١)

شعري نقاشة قلبي	ان جاشرفيه شعوري
لولا ما انجاب عني	غيم الحياة المطير
ولا وجدت اكتابي	ولا وجدت سروري
به تراني حزينا	أبكي بدمع حزين
به تراني طرويا	أجر ذيل حبوري

فالشعر عنده استجابة للنفس في شتى أحوالها وتعبير عن
الحس في كل صوره ، يعبر فيه عن حزنه ان حزن ، وعن سروره

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٣٣

١١٤ / ٠٠٠

أن سر .

وفسي قصيدته " قلت للشعر " (١)

انت يا شعر فلذة من فؤادي	تتغنى ، وقطاعة من وجودي
فيك ما في جوانحي من حنين	أبدى الى صميم الوجود
فيك ما في خواطري من بكاء	فيك ما في عواطفي من نشيد
فيك ما في عوالمي من نجم	ضاحكات غاف الغمام الشرود
فيك ما في عوالمي من ضباب	وسراب ويقظة وهجسود
فيك ما في طفولتي من سلام	وابتسام وغبطة وسسعود
فيك ما في شجيتي من حنين	وشجون ، وبهجة وجمود

فالشعر عنده هو الحياة كلها بصورها المتعددة ، فيسه
احلام طفولته ، وطموح شبابه ، فيه حبسه للحياة ، فيه تهيئة
من الفناء ، فيه غناؤه للنجم ، وطربه لانا شيد الطيور فيه
ربيع عمره وخريفها ، شتاؤها وصيفها . بل الشعر عنده هو
قصة عمره كلها :

انت يا شعر قصة عن حياتي انت يا شعر صورة من وجودي

اذن فالشعر عند الشابي ، هو ما يصدر عن النفس ، صدور
الاشعة عن الشمس ، والاربيع عن الزهر ، دون تعمل أو تكلف ،
فذاات الشاعر منبع شعره ، وان كل ما يقوله يجسب ان يصدر عنها
دون خضوع للملابسات ، أو مناسبات تملي عليه استمع اليه يعرف
الشعر ، " الشعر يا صديقي ، تصوير وتعبير " ، تصوير لهذه الحياة

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٨٦ .

التي تمر حواليك ، مغنية ضاحكة لاهية ، أو مقطبة واجمه باكية ،
أو وداعه حاله راضيه ، أو مجدفة ثائره ساخطه ، أو تصوير لآثار
هذه الحياة التي تعمس بها في اعماق قلبك ، وتقلبات فكرك ،
وخلجات نفسك ، ورفرفة أحلامك وعواطفك " (١)

فالشعر عنده ، هو الانفعال ، وجودة التعبير عن هذا
الانفعال ، مما جعل بعض الناقدين يرى ان الشعر هو " مرض "
ابي القاسم ، لقد كانت العواطف عنده مرضا ناهشا يلهث ، واتعبه
الشعر حتى قتله ، ان الشعر قد كان هو السل الاكبر في حياة
هذا الشاعر المشتعل ، ومن اجله عاش يتقذّب بكل جمال يمر
به وان كان عذابه لذيذا (٢).

ولكن اذا كان الشاعر قد حدد لنا من أين يجب ان ينبع
الشعر ، فانه لا يكتفي بذلك ، فمع اهتمامه بضمون الشعر ،
وصدق التعبير ، يجد ان مثل هذا الصدق لا بد ان يعتويه شكل
فني ، والا هبط من سماء الفن الى درك الحضيض ، فالشابي من
القائلين بأهمية المضمون والشكل في الفن ، وانه لا كرامة لمعنى
في ثوب غلق ، ولا كرامة لووشي يكسو جسما ضعلا ، وهو في ذلك
يقول :

" والتعبير عن تلك الصور أو هاته الآثار بأسلوب فني جميل ،
مماؤه القوة والحياة ، يقرأه الناس فيعلمون انه قطعة انسانية من
لحم ودم ، وقلب وشعور لانهم يحسون انه قطعة من روح الشاعر

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته وشعره ، ص ٢٧٠

(٢) نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر ، منشورات مكتبة النهضة ، بيروت ،

الطبعة الثالثة ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

وعبق من عواطفه ، أو فلذة حياه من فؤاد الحياة (١)

ويرى الشابي ان الشكل الفني يجب ان يقد على قسدر
المضمون ، وأن يتناسب معه ، كما تتناسب الملابس الجيدة الصنعة
مع اجسام لابسها ، فلا فائدة من ملابس مترهل يكسو جسما ناحلا
ولا فائدة من ملابس قسيّ حرّة لابسها ، كذلك هو الشكل الفني
يجب ان يكون على اقدار المعاني خادما لها ، معبرا عنها اجمل
تعبير ، يقول : " هذا هو الاسلوب الذي يكون دائما كضوء القمر
حينما يمثل سخط الحياة ، أو ثوران العواطف ، ويكون دائما كضوء
القمر ، حينما يمثل طمأنينة الحياة وسكون النفس ، ويكون رقيقا
شجيا كأنات ناي بعيد ، حينما يمثل احلام الحياة ، ونجوى القلوب
المتحابة ، ويكون كهيّا مظلما كقلب الظلام ، حينما يمثل بؤس الحياة
وأحزان البشر " (٢)

ويرى الشابي ان صدق الشاعر ، ودقة التصوير ، هي المقياس
الوحيد للشعر ، " فالتصوير الصادق ، الذي يسريك تصورات الشاعر
أرقى من تصورات البشر ، والتعبير الفني الجميل الذي يكون قالبا
انسانيا حيا ، لذلك المعنى الذي يشملك ، هو الذي ينبغي
لك ان تبحث عن ، كلما قرأت قصيدا ، أو تلوت مقطوعا ، أو تصفحت
ديوانا ، فان وجدته فكن على يقين انك انما تقرأ شعر الحياة
وان اخطأته ، فاعلم انك تقرأ شعرا زائفا لا قيمة له في سوق
الخلود " (٣)

(١) (٢) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته وشعره ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ .
١١٧/٠٠٠

ويعتد ان أوضح الشعاع مفهومه من حيث مضمون الشعر وشكله دعنا نستمتع اليه يحدثنا عن الاثر الذي ينبغي ان يحدثه الشعر في قارئه ، وما هي مقاييس الحكم عليه صادقاً أو غير صادق " لكي تدرك هذه الحقيقة فانظر هل هو من ذلك النوع الذي يوسع أفق الحياة في نفسك ، ويجعلها محسّ بتغيرات الوجود أكثر مما محسّ ، وتدرك من معانيه وأصواته أكثر مما ألفست أن تدرك ، وينسبك وجودك الانساني لحكمة تستغرق في عالم الجمال المطلق الذي يخلقه الشاعر حواليك ، ويسبح منه على نفسك ، أقول انظر فان كان من هذا النوع فاعلم انك تقرأ شعراً الهيا لا تجود بمثله الحياة كثيراً ، والا فاعلم انك تقرأ مثلاً دون ذلك" (١)

ويؤمن الشابي ان الشاعر ، متأثره بالحياة الاجتماعية ، وبالظروف الطبيعية التي تعييط به ، وبالعالم النفسي الذي يجول فيه ، لا يستطيع ان يعبر عن ذلك كله بشعر صادق ، الا اذا شعر بالمعاناة بحق ، وصد في ذلك عن احساس مرهف ، وتشمل واع بكل ما يجري " فالشاعر لا يستطيع ان يخرج عن نفسه التي بين جنبيه ، وما في هذا العالم من سحر ولذة وألم ، وما خلقت له الانسانية من فن ورأى ودين ، ولكنه حين يتحدث اليها بذلك في آثاره لا يتحدث به الا بعد ان يحيا في قلبه ، ويتوحد في حياته ويتضج بأصواء نفسه المشرفة ، فتبرز آثاره للدنيا موسومة بموسمه ومطبوعه بطابعه الذي لا يزول" (٢)

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته وشعره ، ص ٢٧١

(٢) ابو القاسم الشابي ، الادب العربي في العصر الحاضر ، مقدمة ديوان الينبوع

احمد زكي ابوشادي ، الطبعة الاولى ١٩٣٤ ، صفح ٢٠٠ ، ش .

ويمد أن أوضح مقاييس الشعر الجيد ، يوضح مقاييس الشاعر الجيد فالشاعر عنده " هو الذى تقرأ شعره ، فتجده فيه انسانا من لحم ودم يحيا ويتنفس ، ويشعر ويفكر ، ويجاونا بالعطف والحس والخيال ، وينسينا لحظة وجودنا المحسوس ، بما يخلعه علينا من جمال الفن وصوره ، ويرتفع بمشاعرنا فوق دنساي هذا العالم ومحقراته ، اذا وجدنا هذا الشاعر ، فلنقرأه نسي ثقة وايمان بأنه شاعر حقا . . . والشاعر العظيم هو الذى يوفق في فنه الى المصادلة بين نسب العاطفة والفكر والخيال ، والاسلوب والوزن ، بحيث يجعل بينها التجاوب الموسيقى الذى ينسجم في القصيدة انسجام النور والعطر ، والماء والهواء في الزهرة الجميلة الياقة" (١)

وحتى يتسنى للشاعر ذلك ، يجب عليه ان ينح الحرية ، فيجدد ما شاء في اسلوبه ، وطريقته نسي التفكير والعاطفة والخيال ويستلهم ما شاء من كل هذا التراث المعنوى العظيم الذى يشمل كل ما ادخرته الانسانية ، من فن وفلسفة ورأى ودين ، لا فرق في ذلك بين ما كان منه عربيا أو أجنبيا .

ب (تأثره بالمدارس الادبية المختلفة) :

ولكن كيف تحقق لابي القاسم ، مفهوم الشعر هذا ؟ هل هو وليد صادقة ؟ ام نتيجة كثرة اطلاع وتأثر بالمدارس الادبية المختلفة ؟

(١) ابو القاسم الشابي ، الادب العربي في العصر الحاضر ، مقدمة ديوان الينوع - احمد زكي ابو شادى - الطبعة الاولى ١٩٤٤ ، صفحة ٢٠٠
١١٩ / ٠٠٠

لا شك ان الانسان مهما بلغ من العبقرية والنبوغ ، لا يمكن أن يصوغ نظرية أو يفتق ذهنه عن اختراع ، إلا بالدراسة العميقة الواعية المدعمة بذكاء وفطنة ، للعديد من المنجزات القومية والانسانية ، فما هي المؤثرات العظيمة التي صقلت مفهوم الشابي للشعر ، وأثرت في شعره ؟ واجيب ان تجربة الشابي الشعرية قد تأثرت بما يلي :

١ - تأثره بالادب العربي القديم :

نشأ الشابي في اسرة محافظة ، فكان ابوه عالما من علماء الازهر ، تضم مكتبته العديد من الكتب الدينية واللغوية والادبية التي كانت مدرسته الاولى ، ثم انتقل بعد ذلك الى جامع الزيتونة وهو معقل الثقافة العربية الاسلامية في تونس ، وفيه تلقى علومه وثقافته ، واكسب على دراسة العديد من امهات الكتب العربية ، من امثال الافغاني ، والشعر والشعراء ، والكمال ، والعقد الفريد وغيرها ، كلها امدته بحصيلة لغوية ، وساعدت على اشراق أسلوبه .

٢ - تأثره بقراءاته للاداب الاجنبية ومدرسة الديوان :

مع ان الشابي كان يجهل اللغات الاجنبية ، الا انه ألح على قراءة ما ترجمه منها ، اعلم الادب العربي في مصر ، ممن امثال العقاد ، وابراهيم ناجي ، والملازني ، وغيرهم ، فكثيرا ما قرأ لشاعر الرومانسيه "لامارتين" وقرأ ما ترجم من آثار "دي موسي" وهو موجود وغيرهم ، وكان لقراءاته هذه ابعاد الاثر في تجربته الشعرية بل انه تحيز لهؤلاء ، واتخذهم في كثير من الحالات قدوة له وعقد بينهم وبين شعراء العربية العديد من المقارنات .

وتأثره بمدرسة الديوان واضح كل الوضوح فمفهوم الشعر عنده لا يختلف كثيراً عن مفهوم الشعر عند العقاد .

٣ - تأثره بجماعة أوصلو :

تأثر أبو القاسم الشابي تأثراً مباشراً بجماعة "أوصلو" تلك المدرسة الأدبية التي أقامها الدكتور أحمد زكي أبو شادي في سبتمبر ١٩٣٢ ، وتمتاز هذه المدرسة بدعوتها للجديد ، وقد ضمت في عضويتها العديد من شعراء العربية وأدباءها ، في مصر وغيرها من بلاد العرب ، انتسب أبو القاسم إلى هذه الهيئة التي طالما قرأ مجلتها - أوصلو - ووجد فيها ما يروى ظمأه في تطلعه نحو الجديد ، ونشرت له هذه المجلة بعض قصائده قبل أن ينتسب إلى عضويتها ، ولكنه سرعان ما اشترك فيها ، وقبول اشتراكه بالترحيب ، وهو يروى قصة علاقته مع "أوصلو" في رسالة بعثها إلى صديقه محمد العلوي يقول " أما علاقتي أنسا "أوصلو" فقد حدثتك في رسالتي السالفة ، بأنني وجهت لها قصيدتين ، ومعلم الاشتراك ، وطلبت من صاحبها أن يوجه إليّ الأعداد الأولى منها ، وقد ورد عليّ كتاب منه بعد ذلك ، وطيه معلم الاشتراك نفسه قائلاً " انه يستمحيّني عذراً في أرجاعه لان المجلة توجه إليّ كهدية خالصة ، وصحبته ورقه مطبوعة فيها طلب العضوية لجمعية "أوصلو" وطلب مني تميرها وأعضائها وتوجيهها حتى يضمن اسمي في ثبت أعضائها ، كما طلب مني أن أرسل صورتي لتتشر بالمجلة مع شعري ، وقد ضمن رسالته من سمحت به نفسه من شئنا وأعجاب ، كما أهدى إليّ نسخة من

ديوان له اسمه " اشعة وظلال " ووجهه اليّ الاعداد الاولى
من المجلة " (١)

وقد ربطت ابو القاسم صداقات حميمة بعدد من اعضاء
هذه الهيئة من امثال ابراهيم ناجي ، وعبد العزيز عتيق ، واحمد
زكي ابوشادي . وكان ابوشادي شديد الاعجاب بعقيدة الشابي
الشعرية ، ومما يظهر مدى اعجابه طلبه من ابي القاسم ان يكتب
مقدمة ديوانه " الينبوع " الذي صدر في عام ١٩٣٤ في نفس العام
الذي توفي فيه الشابي .

كما كان ابوشادي يزعم نشر ديوان ابي القاسم - اغاني
الحياة - ، قيل أن أبا القاسم كان ينوي ارسال ديوانه الى ابي
شادي في نفس اليوم الذي توفي فيه .

وعندما توفي الشابي كان مجموع ما نشره من شعره في
مجلة " أوصلو " اربع عشرة قصيدة ، وثلاث مقطوعات ، كان آخرها
قصيدة " ارادة الحياة " و " نشيد الجبار " (٢)

وكان لهذه الجماعة اكبر الاثر في تعريف ابي القاسم
للعديد من قراء العربية ممن يقرأون مجلداتهم .

ويسرى الدكتور محمد عبد المنعم خلفي ، ان تأثر الشابي
بهذه المدرسة كان واضحا في شعره اذ أخذ فكرة قصيدة

(١) من رسالة بعث بها ابو القاسم لصديقه محمد الحليوي ، نشرت في مجلة الفكر
التونسي ، أوردها ابو القاسم محمد كرو ، في كتابه آثار الشابي وصداه في
الشرق ، ص ٣٥ ، ٣٦
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥ .

— ارادة الحياة — من قصيدة لابي شادى عنوانها — النهضة اراده —
وكذلك قصيدته — عذبت انت ٠٠٠ الخ — تجاوب فيها مع قصيدة
ابي شادى " عروس المأتم " ومطلعها :

عذبة انت في الخفاء وفي الجهد ر ، وفي الهجر يا اغاني الظالم

وانه تجاوب في موسيقاه في قصيدته " الصباح الجديد "
التي مطلعها :

اسكتي يا جراح أسكتي يا شجون

مع قصيدتين ، لابي شادى أولهما ، السوداع ومطلعها

انتهب يا شعاع نبخر قلبي الحزين

وثانيهما قصيدته " بعد الصيف "

اضحكى يا رمال من هدير المياه

فقد تجاوب الشابي مع هاتين القصيدتين في الموسيقى والصور
كما تجاوب معهما كذلك الشاعر ابراهيم ناجي ، وكان الشابي وناجي
معجبين بكلتا القصيدتين " (١)

اما الدكتور محمد مندور فيرى ان ابا القاسم كان اقوى جماعة
"أوبللو" طباقة يقول " اننا نستطيع ان نبلور شخصية أبي القاسم
في انه كان روحا ثائثه ، ومن هذه الروح شعره الذي ربما
كان اقوى هذه الجماعة طباقة شعرية . وحدة عاطفية ، وثورة روح ،
وان تكن تلك القوة الضخمة قد ذهبت معظمها — لسوء الحظ — في

(١) د . محمد عبد المنعم خفاجي ، دراسات في الادب العربي الحديث ومدارسه
الحلقة الاولى ، دار الطباعة المحمدية بالازهر بالقاهرة ، ص ٢٨٥ .

مصارعة ذلك الممرض المميت الذى عاجل هذا الشاعر ، وهو لا يزال
فقر الشباب ، ولم يفارقه حتى قضى عليه . (١)

٤ - تأثره بشعراء المهجر :

كان ابو القاسم شديد الشغف بالقراءة ، فهو ان كان قد
قرأ الادب العربي القديم من مصادره الاولى ، وقرأ الادب الاجنبى
المترجم ، وقرأ ما انتجه شعراء ومدرسة "أوللو" ، وما انتجته
شعراء مدرسة الديوان ، وتأثر بكل ذلك ، اكب على دراسة الادب
المهجري ، وتأثر به ايضا ، فأنت تلمس عنده النقد اللاذع ، والحدب
على الانسانيه المعذبه ، والسخرية المره بالحياة الراكدة ، وهذه
اهم ما امتازت به المدرسة المهجرية .

ويسرى بعض الدارسين ان تأثير جبران في الشابي كان واضحا
حتى ان الاستاذ خليفة محمد التليسي ، ألف كتابا عنوانه " الشابي
وجبران " واستشهد بالعديد من النصوص لكل منهما يثبت تأثر
الشابي بجبران .

ويسرى ان ثورة الشابي على شعبه الذى يراه غير جدير
بالحياة في قوله :

لست يا شيخ للحياة بأهل انت داء يبيدها وتبيده

وقوله :
أيها الشعب انت طفل صغير لاعب بالتراب والليل مغس

(١) د . محمد مندور ، الشابي روح ثائرة ، مجلة المجلة القاهرة ، ٦٤ يونيو
١٩٥٧ ، وردت في كتاب دراسات عن الشابي ، اعداد ابو القاسم كرو
ص ٩٦ .
١٢٤ / ٠٠٠

انصاعاً مآخوذة من جبران القائل "والحياة عنم يرافق الشبية ،
وجد يلاحق الكهولة ، وحكمة تتبع الشيوخ ، اما انتم يا بني أُمي ، فقد
ولدتم شيوخاً عاجزين ، ثم صغرت نفوسكم ، وتقلصت جلودكم ، فصرتم
تتقلبون على الاوحال ، وتترامون بالحجارة . " (١)

ويقول الاستاذ التليسي ايضاً ان تأثير الشابي بجبران لم
يقتصر على المضمون دون الشكل ، بل تعداه الى الشكل الفني والصياغة .
يقول جبران :

" من يهوى النور فالنور يهواه "

ويقول الشابي :

ومن ناحت النور احلامه يباركه النور أني ظهر

ويقول جبران في غربته بين قومه " ثم التقى برعط من الشيوخ ،
فيوثون نصوى بأصابع وثيقة قائلين : هو مجنون أضاع صوابه في مسارح الجن
والفيلان . وذلك ما قاله اعداء الشابي فيه ، وهي عبارة جبرانية نظمها
في نسق رائع .

وقد أضاع الرشاد في ملعب الجن فيا يؤسه اصيب بمس

ويرى كذلك ان التفني بالفساد الذي كثر في شعر الشابي انما هو
نخمة جبرانية ، وينتهي الاستاذ التليسي بنتيجة يقول " والمشابهة بينه وبين
جبران اعظم من ان توحىها المصادفة او وقوع الحافز على الحافز ، ولكنها
المشابهة التي تتيحها التلمذة ، تلمذه من عكف على جبران " (٢)

والباحث يتفق مع الاستاذ التليسي في كثير مما قال ، ولكنني
أحب ان اضيف ان كلا من جبران والشابي كانا تلميذين مخلصين

(١) خليفه محمد التليسي ، الشابي وجبران ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ،
الطبعة الثانية ١٩٦٧ ، ص ٤٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٣ - ٥٤ . ١٢٥/٠٠٠

للمدرسة الرومانسية ، فالتفني بالغاب والثورة والتسرد ، وتجيد الحياة والذاتية المفرطة في الشعر ، ليست خاصية في شعر جبران فحسب ، بل هي من سمات المدرسة الرومانسية التي انتمى اليها كلاهما

كما ان الاستاذ ابو القاسم كرو ، أكد حقيقة اثر جبران البارز في الشابي ، وعرض نماذج لكلا الشعاعين تؤيد مذهبه .

قال جبران :

وما السعادة في الدنيا سوى شبح يرجى فان صار جسما ملأه البشر

ويقول الشابي :

وما السعادة في الدنيا سوى حلم ناء تضحى لها ايامها الاعم

ويلاحظ ان صدرى البيتين متشابهان ، وان الشابي لم يغير سوى اللفظ الاخير ، وكذلك يبدو التشابه واضحا في عجز البيتين الا ان الشابي كان اعظم من جبران ، وأصدق تعبيرا منه للسعادة في واقع الناس . (١)

ولكن هل كان ابو القاسم بعد هذه الامثلة التي ساقها كل من الاستاذين التليسي ، وكرو ، تلميذا فحسب للمدرسة الرومانسية ، وان ما قاله لم يعد الا تكرارا لما قاله جبران أو نعيمه ، دون اصالة ودون ان يسكب في شعره من روحه وفنه ؟ دعونا نستمع الى ما قاله الدكتور درويش الجندى " وممن تأثر بسنزة المهجريين التصويرية خارج مصر والشام ، أبو القاسم الشابي

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته وشعره ، ص ٥٨ .

التونسي ، ولكن صورته يغلب عليها الصدق والوضوح (١).

أما الدكتور محمد مندور فيقول في هذا المقام "وأنا بعد لا أنكر ما لا بد منه من أن الشابي قد طالع الكثير من الشعر العربي القديم والحديث ، بل من الآداب الغربية المترجمة إلى اللغة العربية ومن هذه المطالعات ، تكونت ثقافته الشعرية والانسانية الصامة ، كما تثقفت سليقته ولكن الذي أنكره هو أن يكون أبو القاسم الشابي ، قد تأثر بأحد تأثرا مباشرا ، بقدر ما تأثر بطبعه الخاص وبقريته الفريدة المتميزة ، وروحه الثائرة ، وصراعه الدائم مع ما شققت به حياته من آلام وجحود ونكران فضلا عن المرض القاتل الذي يصارعه في بطولة وتحد حتى آخر رمق في حياته ، وأنا لنحس في شعره روح الأبطال الشهيد" (٢).

وبعد هذه هي عناصر تجربة أبي القاسم الشعرية : روعة طبعه ، رهف حسه ، قراءاته المتعددة للأدبين العربي والاجنبي .

٢ - منزلته الشعرية :

أبو القاسم الشابي شاعر عبّر عن حسّه ، ولعلّه لم يعتمد أن يكون شاعرا ، إنما ساقه إليه رهف حسّه ، وتوقد مشاعره ، مع اقتداره على التعبير وتمكّنه من نقل كل ما يعتلج في نفسه إلى الآخرين ، فيشاركونه فيه .

(١) د . درويش الجندی ، الرمزية في الادب العربي ، مكتبة النهضة المصرية بالجالة ، ١٩٥٨ ، ص ٤٣٠ - ٤٣١ .

(٢) د . محمد مندور ، مقال نشره أبو القاسم كرو ، في كتابه دراسات عن الشابي ص ٩٧ .

وكان أبو القاسم من زعماء التجديد في الشعر العربي ،
يؤكد ذلك قول الدكتور مندور " انه كان اقوى جماعة أو بطلو .
وتجاوز أبو القاسم بشعره حدود تونس ، ليصل الى مسامح
القارئ في كل انحاء البلاد العربية ، ولعلله الشاعر العربي
الوحيد في شمال افريقيا كلها الذي يصل الى مثل هذه المرتبة
ويسمو الى هذه المكانة .

ويرى بعض الناقدين ان الشابي لتونس كالمتمني للعراق ،
وكالمعري لسوريا ، وجبران للبنان ، وشوقي لمصر . (١)

واتفق الكثير من الادباء والنقاد العرب على تمجيد الشابي
والاشادة بعبقريته ، فالدكتور أحمد زكي أبو شادي يقول " ان لابي
القاسم الشابي روائع كثيرة ظفرت بمجلة أو بطلو ومجلتها بالقسط
الاوفر منها ، وانه لتعصب المفاضلة بين قصائده هذه فجميعها
يتسم بالجمال الفني الانيق بكامل عناصره ، ان شعر الشابي هو
شعر العبقرية والتفوق ، فله قدسيه نورانيه يصعب تعريفها ،
وسواء ادينا فجرها أو شروقها ، لانها على اختلاف منازلها تتألق
بالجمال ، وتنم عن رسالة سامية ، وأبو القاسم الشابي هو احمد
أولئك الافئدة العالمة الروح ، الذين لم يسهروا النقد الموضوعي
فحسب ، من ناحية الطاقة الفنية القوية ، بل بهروا كذلك مقاييس
التمثالية الرفيعة ، من خلقية ووطنية وانسانية ، وكانت معجزتهم
الازدواج بين هذه المزايا وفي الانسجام التام بينها ، وهذا قلما

(١) أبو القاسم كرو ، ما يجب نعمله الشابي ، مقال ورد في كتاب دراسات عن

الشابي للمؤلف نفسه ، ص ٨٧ .

يكون إلا لصفوة الصوفيين . (١)

ويرى بعضهم أن الشابي كان شاعرا كاملا ، أحب الجمال ،
وأحب الحياة ، وأحب وطنه ، وأحب الكون ، وأحب الحرية ، وكان
هذا الحب ممتازا في شاعر ممتاز ونفس ممتازة ، فهو حسب
يسمى فوق الألم ، وفوق الاضطهاد ، وفوق الجسد ، هو حسب
يتخطى حدود تونس إلى مصر إلى الشام إلى العراق ، فلا يلبث
أن يكون انسانيا شاملا وعالميا فير محدود . (٢)

وللشاعر المرحوم - عزيز أباظة - رأى في الشابي لا يقل عن
آراء زملائه " أن الشابي ليس من الشعراء الذين يقذف بهم في
هذه الدنيا ثم يحملون منها ، فلا تحسبهم هذه الدنيا ، ولكنه
على النقيض من قلائد الشعراء الذين لا تستطيع الدنيا إلا أن تؤمن
حين يشرقون عليها أن شيئا ذا خطر دب فيها ، أو خلق في
أجوائها " (٣)

أبو القاسم شاعر ذو سمعة عالمية :

ترجم العديد من شعر الشابي إلى الفرنسية ، ونقلت له
مجلة " أبلا " الفرنسية ثلاث قصائد في أعدادها السادس والثلاثين

-
- (١) أحمد زكي أبو شادي ، أبو القاسم الشابي ، مقال أورده أبو القاسم كرو
في كتابه آثار الشابي وصداه في الشرق ، المكتب التجاري للطباعة
والتوزيع والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦١ ، ص ١٧٠ - ١٧٤ .
 - (٢) إبراهيم ناجي ، أننا نبحث عن الشاعر الكامل كما نبحث عن المعجزة ،
المرجع السابق ، ص ٢١٢ .
 - (٣) عزيز أباظة ، البحث الجديد ، المرجع السابق ، ص ٢١٤ .
- ١٣٩ / ٠٠٠

والسابع والثلاثين والسادس والأربعين . كما ترجمت بعض قصائده
الى الانجليزية والسويدية ، وأصدر ابو القاسم محمد كرو كتابا
عنه بالفرنسية . (١)

فهذا الشاعر الايطالي " قويدو ميدنيه " يناجي زملاءه
الشعراء في كتابة " افريقيه " فاذا ما تحرك الغييل وداعبت
الرياح ، فأنا لا أفكر الا فيك يا شابي ، أنت يا شابي كسان قلبك
يتسالم ، ويتقلم عند رؤيئة الطبيعة ، وهي شائرة ، والبحر وهو
متلاطم الامواج " (٢)

لذا يرى بعض الناقدين ، ان ابا القاسم قد تجاوز حدود
وطنه ، ليضحي شاعرا عالميا ، خاصة في اشعاره التي قالها
في مرحلة نضجه الفني ، فهو مثل طافور ولامارتين الذين
يقولون ويكتبون ، لتستمع اليهم جميع امم العالم على اختلاف سنتهم
وأجناسهم وأديانهم " (٣)

* * *

-
- (١) ابو القاسم محمد كرو ، دراسات عن الشابي ، ص ٤٢ .
(٢) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته وشعره ، ص ١٣ ، ١٤ .
(٣) ابراهيم ابورقعه ، حياة ابي القاسم الشابي ، مقال ورد في كتاب
دراسات عن الشابي ، اعداد ابو القاسم كرو ، ص ٧٢ .
١٣٠ / ٠٠٠

الفصل الثاني

أهم أغراض شعره وخصائصه الفنية

طرق أبو القاسم العديد من أغراض الشعر قديمه وحديثه ،
ولكن أهم القاسم كان ينأى بالشعر ان يكون أداة مدح يحمله لسيادة
القلم ، ليعلمهم وينال من اعطياتهم .

لا أنظم الشعر أرجو	به رضا أسير
بمدحة أو رشاء	تهدي لرب السرير
حبي اذا قلت شعرا	ان يرتضيه ضميري
لا أقرض الشعر أغني	به اقتنائي نوال
الشعر ان لم يكن في	جماله ذا جلال
فانما هو طيف	يسعى بوادي الضلال
يقضي الحياة طريدا	في ذلة واعتزال

لذا خلا ديوان أبي القاسم من أية قصيدة في المدح .

أما الهجاء فلا يحتوى على اية قصيدة هجا فيها شخصا
بمینه ، بل تجد الكثير منها في هجاء شعبه ، أو هجاء أعدائه ،
وقد سبق ذكر نماذج منها حين عرضت لموضوع - علاقة الشابي
بشعبه - .

الرشاء :

الباحث في ديوان أبي القاسم لا يجد فيه الا قصيدة واحدة
في الرشاء ، هي تلك التي رثى فيها والده .

وقد قدّم لها الشاعر بقوله " عني صرخة من صرخات النفس ،
المملوءة بالاحزان ، والذكريات وشظيه من شظايا هذا القلب المحطم
على صخور الحياة ، قلتها في أيام الاسس التي تلت نكمتي بوفاة
الوالد رحمه الله . (١)

ولهذا يعتبر الرثاء من اقل أغراض الشعر التي طرقتها الشاعر
الا ان الدكتور شوقي ضيف يرى ان الشاعر كثيرا ما رثى نفسه ، يقول
" لمّلّ شاعرا عربيا لم يرث نفسه وبكىها ، كما رثى في عصرنا نفسه
وبكاهها ابو القاسم الشابي ، الذي وصف به مرض القلب ، وهو في
رمان الشباب ، فماش يبكي نفسه ويندبها نديها حارا لا في مراثيه
أو مراثيتين ، وانما في ديوان حافل بألوان الشجن والاسى ، وصف
فيه كيف أوصد المرض الابواب والنوافذ عليه ، فلم يعد يرى الا عابيته
وحفرته ، بل ان هذا الصير الذي لا بد وافد عليه ومثته اليه اصبح
يظلمه ، ان يرى فيه منجاته من أصحابه وآلامه ، وعو يسمي هذا
الصير " الصباح الجديد " وفيه يقول :

أسكتي يا جسراح	واسكتي يا شجون
مات عهد النضواح	وزمان الجنسون
وأطلّ الصباح	من وراء القرون

فساعة الخلاص قد دنت ، وأن له ان يدفن آلامه ، ويفترق
أحزانه في خضم الانهائية ، فقد دعاه الصباح ، ولم يعد الظلام
يستطيع ان يلفّ جسده في ظلال الالم ، انه راحل وهو سعيد برحيله . (٢)

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٩٥ .

(٢) د شوقي ضيف ، الرثاء ، سلسلة فنون الادب العربي - الفن الغنائي ، دار

المعارف ، ١٩٥٥ ، ص ٣٤ .

السوداع السوداع	يا جبال الهمم
يا ضباب الاسى	يا فجاج الجحيم
قد جرى زورقي	في الخضم العظيم
ونشرت القلاع	فالسوداع السوداع

ومن أهم الافراض التي طرقها الشابي في شعره ، هو شعره
في الحياة والموت وقد سبق التعرض له حين تحدثت عن فلسفة
الموت عنده .

وشعره الوطني ، الذي ذكرت اطرافاً منه حين عرضت لموضوع
- علاقة الشابي بشعبه - وهذا الشعر يزخر بالثورة على المستعمرين ،
وفيه بحث شعبه على الثورة ويدعوه الى حياة كريمة ، وهو من
اشهر شعراء أبي القاسم ، امتاز بالصدق والعنف والحدة ، مما جعل
الدكتور شوقي ضيف يعتبره أصدق شعر وطني قاله شاعر عربي معاصر
يقول : " وهذا الشعر السياسي أو الوطني كان منتشرًا في كل بلاد
الشرق الاوسط : في مصر والشام والعراق ، ولكن شاعرا لم يبلغ في
هذه البلدان ما بلغه الشابي في تونس من حدة الاحساس وعنفه ،
حقا نجد عن حافظ والرصافي واضاربهما تعبيرا سياسيا أو وطنيا
مستحدثا في لغتهما ، ولكننا لا نجد عندهما هذا الاحساس الحاد الذي
يجعل الشاعر يحس في أعماقه آلام أمته وأوجاعها تلقاها المستعمر
الظالم ، فينتفض ويزار في وجه القاصب زئير الماصفه ، على نحو ما
يزار الشابي " (١)

(١) د . شوقي ضيف ، دراسات في الشعر العربي المعاصر ، ص ١٥١ .
١٣٣/٠٠٠

ويبقى غرضان رئيسان ، أرى أن أعرض لهما في هذا الفصل هما
شعر الطبيعة وشعر الغزل .

١ - شعر الطبيعة :

حين تصدى الشابي للطبيعة يصفها ، لم يقف منها موقف المشاهد
يصف مناظرها الخارجية ، إنما تعمقها وشخصها ، وكثيرا ما ناجاها
وحاورها ، فملكته فلسفة الحياة ، وعلقت به الطهر والنقاء ، ثم هو كثيرا
ما لجأ إليها عندما اهتلت عليه الحياة ، وحين لم يفهمه أهلها ،
فاعتبرها محرابه الذي يتمجد فيه ، ويهتدى فيها إلى أسرار الكون ،
ومفاتيح الحياة ، والشابي في هذا يتفق مع أساتذة المدرسة الرومانسية
من أمثال روسو ، وبيرون ، وشاتوبريان ، يرى الطبيعة مأوى ومسكنا
لروحه ومشاعره التي تأت وتأت وتألست ، وهو إذا أوى إلى أحضان الطبيعة
إنما يفعل هذا زهدا في دنيا الناس ، وهروبا بمشاعره من أن
تضطرم بحياة اليوم العادي ، فهو يرى أن النشوة التي تمنحها الطبيعة
هي أجمل ما تمنحه كئوس الراح .

مالنا والكؤوس نطلب منها نشوة ، والفروا سحر وسكر
خلنا تلك فالربيع لنا سا ق ، وهذا الفضاء كأس وخمر
نحن نغدو بين المروج ونغدو ونغني مع النسيم المغني
ونناجي روح الطبيعة في الكو ن ، ونصغي لكونها المتغني

والشابي كثيره من شعراء الرومانسيه ، يلجأ للطبيعة كراهبة
وبفضا للإنسان ، كأن يجد في الجبال غذاء لشعوره ، وفي الغراب
صدر متعته ، وفي رؤيه المدن وسماع ضجيجها أذى لسمعه وبصره .

مشق الشابي الطيممة ، ومنها استمد استعاراته وتشبيهاته ،
يستشهد بها في ثنايا الكثير من قصائده ، فإذا وصف حبيبته فهي
عذبة كالصباح ، وكالسماء الضحوى ، كالليلة القمر .

وفي قصيدته " ارادة الحياة " يدخل مع الطيممة في حوار ،
يتعلم منها القنوه :

ودمدت الريح بين الفجاج وفوق الجبال وثحت الشجر
إذا ما طمحت إلى فاية ركبت المنى ونسيت الحذر

ثم يسأل الأرض " يا أم هل تكرهين البشر " ، فتجيبه :

أبارك في الناس أهل الطمع ومن يستلذ ركوب الخطر
وألعن من لا يمشي الزمان ويقنع بالعيش عيش الحجر

وهو ان كان ناجى الرياح ، وخاطب الأرض فقد همس في أذن الدجى
سائلا :

سألت الدجى هل تعبد الحياة لمن أذبلته ربيع العمر
فلم تتكلم شفاء الظلم ، ولم تترنم عذاري السحر
ولكن ما الذي أجابه ؟

وقال لي الغاب في رقة محببة مثل خفق الوتر

ألا ترى ممى كيف كان الشابي يشرك الطيممة في كل شأن من
شئونه ، يدبر معها حوارا . أبطاله الأرض والرياح والدجى والغاب ،
كل يجيب عن سؤال ، لقد سخر الشابي الطيممة لتوضيح فلسفته ونظريته
إلى الحياة .

وهو اذا حزن يسقط احزانه على الطبيعة ، فهي تضحك لضحكه
وتبكي لبكائه .

ما سكون الماء الا أنين ونشيد الصباح غير نجيب

والشابي الذي عانى المرض ، وفكر كثيرا في الموت الذي سينتهي
حياته رأى الصحراء ساهمة حزينة ، رآها تفكر في الموت والحياة ، كما
يفكر هو فيها ، نستمع اليه يقول " جمال الصحراء الذي يمتد أمامي
جمال ساهم محمم ، ولقد يخيل اليّ أحيانا انه يفكر فيما وراء هذا
العالم الصاخب الموار ، في معاني الفناء والموت والظلام ، لقد يبلغني
ألوهم أحيانا ان احبه نفا شاعره صلوله ، تتاجي في حمسى
سقام احلامها الحزينة الصامتة الموشحة بأردبة الموت . (١)

وهو في قصيدته النبي المجهول ، يود لو ان له قوة الطبيعة
بمظاهرها المتعددة ، قوة رياحها ، وقوة شتائها ، قوة عواصفها ، وقوة
اعاصيرها يكملها على رأس شعبه الذي تشكر له .

ليتني كنت كالرياح فأطوى كل ما يخفق الزهور بنحسي
ليتني كنت كالشتاء أغمشي كل ما أذبل الخريف بقبرسي
ليت لي قوة العواصف يا شعبي فالقي اليك ثورة نفسسي

وحين اعتزل شعبه لجأ الى الطبيعة ، لتقوم سيولها بحفر رسمه :
ثم تحت الصنوبر الناضر الحلوى تخط السيول حفرة زمسي (٢)

(١) نصرلآبي القاسم الشابي ، أورده محمد خليفة التليسي في كتابه الشابي وجبران
ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .
١٣٦ / ٠٠٠

من النماذج السابقة ، لاحظنا كيف شخص الشابي الطبيعة وجسمها
فاذا هي حبة ، ناطقة فيلسوفه ، واذا هي باكبه حزنه أوضاعه
مشقة ، أوتوية جبارة .

والليل بكل ما فيه من جمال ورهبة ، من هدوء يمت في
النفس التأمل ، وفي الروح الاشراق ، ويشير في النفس الكعبة المخاوف ،
هذا الليل كان له مع أبي القاسم شأن :

أيها الليل يا أبا البؤس والاهوا ل ، يا عيكل الزمان الرهيب
فيك تجش عرائس الأمل المذ ب ، تصلي بصوتها المحبوب
فيشير النشيد ذكرى حياة حجبها غيم دهر كيب
انما يا ليل ذرة صعدت للكون ، من سوطي* الجحيم الغيوب
فيك تنموزنا بق الحلم المذ ب ، وتذوي لدى لهيب الخطوب
بهجع الكون ، في طمأنينة المصفور ، طفلا بصدرك الغريب (١)

لقد كان أبو القاسم يحفل بالصورة الفنية ، فيقيمها لوحة يتخيلها
الذعن ، وتكاد تراها العين من مثل قوله :

فيك تجش عرائس الأمل المذ ب ، تصلي بصوتها المحبوب
وقوله :

بهجع الكون في طمأنينة المصفور ، طفلا بصدرك الغريب

هذه هي الصور التي حفل بها ديوان الشابي ، والتي تتميز
من أهم خصائصه الفنية .

(١) أبو القاسم الشابي ، أغاني الحياة ، ص ٢٥ .

وتجد روعة الصورة في قصيدته " الجنة الضائعة "

كم من عهد عذبة في عدوة الوادي النضير
كانت أرق من النسيم ومن أفاريد الطيور
والذ من سحر الصبا في بسمة الطفل الفيرير
أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير
وطهارة المسوح الجميل ، وسحر شاطئه المنير
وداعمة الصفور ، بين جدار أول المساء النسيم (١)

فأنت واجد في هذه الأبيات التي جانب الصور المتلاحقة ،
رنين جرس المبارات المذب ، وفيها رقة تتحرر عن نيل عاطفه وأحاسيس
ثم ان اللفظ على قدر المعنى ، فلا حشو ولا زيادة .

والطبيعة في شعره لم تظفر بقصائد منفردة ، فلا تجد في
ديوانه قصيدة بعينها يصف فيها غابة أو نهرًا ، أو اشراقة الشمس ،
أو أقول نجم ، بل نجد ذلك في ثنايا قصائده على تعددها ، ومهما
اختلفت اغراضها . ولعل القصيدة الوحيدة التي خصصت لذلك ، قصيدته
من " أفاني الرعاة " (٢) . وهذه القصيدة من أفنى قصائد الشامي
بالصور الجميلة المعبرة ، وفيها تتجلى قدرة الشاعر الموسيقية ، فأنت حين
تسميها تطرب لالوان ثلاثة من الفن : تطرب للشعر المذب ،
والموسيقى الطرية ، والصورة الجميلة ذات الالوان الخلابة .

(١) أبو القاسم الشامي ، أغاني الحياة ، ص ١٤٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٢ . ١٣٨/٠٠٠

يقول :

أقبل الصبح يغني للحياة الناعسة
والربى تحلم في ظل الفصون المائسة
والصبا ترقص أوراق الزهور الباسسة
وتهدأ في النور في تلك الفجاء الدامسة

ألا تسرى روعة الصورة ، ألم تطرب لغماء الصباح ، يردده للحياة
الوسفانة التي لم تكد تصحو من نومها ، ألا تحس معي جمال الربى
تشر عليها ظلال الفصون الرائحة الفسادية يغازلها النسيم ، والصبا
ذلك النسيم المحظوظ الذي تغنى به شمراء العريية في مختلف
عصورهم ، ألا تنراه يحرك أوراق زهورهست ، والنور هل كان ساظما
في ساعات الصباح الأولى ؟ لا بل كان يسير متهاويا ، ينفذني
الظلام ويهدد الحلكة .

أقبل الصبح جميلا ، يملأ الأفق بهاء
فتطير الزهر والطيور وأمواج المياه
قد أفاق المالم الحي وغنى للحياه
فأنبقي يا خرافتي ، وهلمي يا شيباء

لقد اجاد شاعرنا حين صور بأسلوب أخاذ طلوع الفجر ،
وبزوغ الشمس وتنفس الحياة ، وديبب الفاس ، واستقبالهم الحياة
باشراقة وأمل ، وهو يعتمد ذلك ليصور لنا كيف استقبلت الطيور
والزهور والامواه الفجر ، وغنت له ، صورة جميلة يتخيلها القارئ
كأنها تدب أمامه ، لو سمعها رسام لقام بتحويلها من صورة لفظية

تسميها الاذن وتطرب ، وميها العقل فيكبر الطبيعة ويسجد للخالق
الى صورة مرئية تراها العين ويدركها الذهن .

واتمني يا شياهي بين أسراب الطيور
واملكني الوادي ثناء* ومراحا وحبــــــــــــــــور
واسمعي همس السواق ، وانشقي عطر الزهور
وانظري الوادي يفشيه الضباب المستنير

ويستمر الشاعر فيقيم صورة جميلة له ولخرافه تنبئه في الوادي
بين أسراب الطيور ، وهمس السواقي .

وهكذا يستمر الشاعر في مقاطع القصيدة العشرة ، وأبياتها
الاربعين يرسم في كل مقطع ، وفي كل بيت صورة جميلة تبين ما فطرت
عليه ذاته من خيال مرهف ، نستمتع اليه يقول :

واسمعي الريح تنني في شمابخ الجبال

ألم يجمال الشاهر الرياح تنني ؟ لقد أضفى على الرياح

الحياة ، ومنحها حق الفناء .

والشاهر الذي يديم التفكير ، وطيل التأمل في الكون وأسراره

كأنني به قد أراد ان تشاركه شياحه وخرافه تفكيره .

وامضي الاعشاب والافكار في صمت الظلال

والشابي الذي لا يلبث ان يعمر قلبه السرور ، الا ليكدره

الحزن يخاطب شياحه قائلا :

لن تملي يا خرافني في حمى الغاب الظليل

فزمان الغاب طفل لاعب ، عذب ، جميل

وزمان الناس شيخ عابس الوجه هيل

انظر الى الصورة ، ألم يجتم الشاعر " زمن الغاب " ويجعل
منه طفلا صغيرا ؟ وزمن الناس فيجعل منه شيخا عابس الوجه همل
انها القدرة على التصوير والتجسيم التي امتاز بهما الشاعر .
وتجد عند الشاعر قدرة بارعة على حسن التمييز بأسلوب شيق ،
لقد عبر عن وقت العودة قبل الفروب بقوله :

فإذا طالت ظلال الكلا الغض الضئيل
فهلمي نرجع المسمى الى الحي النجيل

لقد عبر الشاعر بطول الظلال عن الوقت قبيل الفروب ، عبر
عنها بصورة جميلة ابتدعها خياله ، صورة الكلا وقد طالت ظلاله .
وبعد هل تعجب اذا قرر أحد الناقدين ان هذه القصيدة
" هي أعرق شعر الطبيعة في الادب العربي " (١)

٢ - الفسزل :

اختلف كثير من الدارسين للشابي ، حول حقيقة حبه ، فهناك
من يرى ان الشابي قد أحب حبا حقيقيا ، وان هناك فتاة تبلسست
فؤاده وهما بهما ، ومن هؤلاء أبو القاسم محمد كرو الذي يقول " أن
قصة حب الشابي لم تصرف فضولها بعد ، ولكنه مع ذلك مقتنع كل
الاقتناع بأن الشابي أحب في حياته حبا حقيقيا صادقا ، وأنه أغرم
بتفاته معينة غراما عنيفا مشهورا ، وبأن تلك القصائد الغزلية الحسان

(١) خلفه محمد التليس ، الشابي وجبران ، ص ٧٩ .

ويذهب هذا المذهب الاستاذ السنوسي يقول " ان له حبيبة ماتت وتركه يندب " جدول الحب " ولنا علم يقين انه أصيب بمرض القلب من تلك الصدمة " (٢)

وهناك من يذهب إلى أن الشابي لم يحب حبا ماديا ، وإنما
أحب العالم العلوي المثالي ، فهو حب ميتا فيزيقي " واني أظن ظنا
يقرب من اليقين ان الشابي لم يحب حبا ماديا يعني به قضاة وطبر
أو وصال حبيب ، بل كان قلبه يخفق بحب روحي علوى ، يتعشّل فسي
مشاهد الطبيعة الساحرة ، وفي مناظرها البهيجة ، وكان حبه معناها
بالقيم الروحية من جمال ، وفن وخير . ما إلى ذلك من هــــــــــــــــــــــ
الروحانيات" (٤)

- (١) أبو القاسم كرو ، الشابي حياته ، شعره ، ص ٩٦ .
- (٢) زين العابدين السنوسي ، أبو القاسم حياته ، أدبه ، تونس ١٩٥٦ ، ص ٣٢ .
- (٣) د . شوقي صيف ، دراسات في الأدب العربي المعاصر ، الطبعة الثالثة ، ص ١٤٧ .
- (٤) أبو القاسم محمد بدرى ، الشاعران المتشابهان ، الشابي والتيجاني ، ص ٥٩ .

أما صديقه الأستاذ محمد الحليوي يقول " ان الشابي أحب المرأة كجنس ، وليس هناك واحدة بعينها ودليله ان الشاعر لا يذكر امرأة مخصوصة ، ولا واقعة بعينها ، وإنما يذكر المرأة والحب ، ويصغ عليها من روحانيته العميقة كل المعاني الرقيقة " (١)

ويرى الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ان حب الشابي كان حبا عذريا " وقد ظهرت هذه النزعة الصوفية في الحب عند شعراء "أوبللو" وأخذوها تيارا عاطفيا ، لتتشكل فلسفتهم العاطفية الملوثة بالحب والحرمان والالام والمذاب ، والضنى والارق ، فالحنسب عندهم متعة للروح لا للجسد ، وهذه نزعة الرومانتيكيين السائدة فُتن بها شعراؤنا ، وقصيدة الشابي " صلواتني هبكل الحب " من أمثلة هذه الظاهرة الفنية " (٢)

والاستاذ محمد خليفه التليسي اكثر من اهتم بموضوع المرأة في شعر الشابي ، حيث أفرده في فصل في كتابه " الشابي وجبران " وفيه يرى ان الشابي لم يحب في حياته امرأة معينة ، وإنما كان يتغنى بالمرأة كمثال أعلى ، دفعه الى ذلك ما لاحظته من انحطاط شأن المرأة في الادب العربي ، وانها لم تكن خلال العصور الا قطعة أثاث تتنقل من بيت أبيها الى بيت زوجها ، لا يهتم بها الرجل الا كجسد ومتعة ، والشابي الذي كان رومانسي الاتجاه والمذهب ، أحب المرأة ونظر اليها نظرة العفة والتصوف فاذا المرأة في منزلة المعبودة ،

(١) محمد الحليوي ، مع الشابي ، (سلسلة كتاب البحث) تونس ١٩٥٥ ، ص ٢٤ .

(٢) د . محمد عبد المنعم خفاجي ، دراسات في الادب العربي الحديث ومدارسه ، ص ٢٧٨ .

حاول الشابي بهذا ان يقبل عثرتها ، وان يسموها عن جسد يحس
ويجس ، الى روح طاهرة تحمل في طياتها أنبل المماني ، فهي الام
والشقيقة والصديقة . وفيها تتمثل مماني الاسومة الرؤومة ، فهو يقول
"شمر الشابي صادر عن نفس محرومة ، فلا يتنفس فيه الا الشوق والحنين
الى تلك التي تنقذه من جهامة أيامه ، ورتابتها المله ، ولذلك
اجدني من القائلين بأنه كان يتفنى بالمرأه كمثل أعلى ، لا امرأة
ممينة" (١)

والياخذ يرى ان ابا القاسم قد يكون أحب فتاة بممنها ، وهام
بها حبا ، ومرجعي في ذلك ديوان ابي القاسم نفسه ، الذي ضم
العديد من القصائد الفزلية التي عبرت عن لحظات سعادة عاشها
الشاعر مع حبيبته ، ولحظات يؤس خلفها موتها .

فهو يخاطبها قائلا :

أنت ما أنت ؟ أنت رسم جميل عبقري من فن هذا الوجود
فبك ما فيه عن فموض وعمق وجمال مقدس معبود
انت روح الربيع تختال في الدنيا ، فتبهتر رائعات السورود
كلما ابصرتك عيناى تمشين بخطو موقّع كالنشيد
خلق القلب للحياة ، ورف الزهر في حقل عرى المجرود

ثم يخاطب الحب ويعتبره اكثر من أقض مضجعه ، وأذوى جسده
وألمق بدنه :

(١) محمد خلفه التليسي ، الشابي وجبران ، ص ١١٧ .

أيهما الحب أنت سر بلاني وهمومي وروعتي وعنائتي
ونحولي وادمعي وعذابي وسقامي ولوعتي وشقائتي

وقد يقول البعض ان مثل هذه النماذج الشعرية ، لا تقيم الدليل على ان الشابي أحب امرأة بعينها ، فلم يهتف باسم عند أو نصم ، كما عتف بها شعراء العرب من قبل ، وقد يكون في ذلك دليلا على انه يخاطب المرأة كجنس . ولكن نستمع اليه يقول اثر وفاة حبيبته

... ولا يعقل ان تموت المرأة كجنس .

بالامس قد كانت حياتي كالسماء الباسمه
واليم قد أمست كعساق الكهوف الواجمه
قد كان لي ما بين أحلامي الجملة جدول
يجرى به ماء المحبة طاهرا يتسلسل
هو جدول قد فجرت ينبوعه في مهجتي
أجفان فاتنة أرتبها الحياة لشقوتي
أجفان فاتنة قراءت لي على فجر الشباب
كمروسة من غايات الشمر في شفق الحباب
ثم اختفت خلف السماء ، وراء هاتيك القيم
حيث المذارى الخالدات يسن ما بين النجم
ثم اختفت أواه ، طائفة بأجناح المنون
نحو السماء ، وها أنا في الأرض تمثال الشجون

ومهما يكن من أمر ، أكان الشابي أحب المرأة كجنس ، أو أحب امرأة بعينها ، فإن ديوانه يحتوى على قصائد غزلية جميلة عذبة .

لمل أشهرها قصيدة - صلوات في همكل الحب - التي حازت إعجاب
كل دارسي شعر أبي القاسم ، وهو أن الدكتور أحمد زكي أبوشادي
حين انتهى من قراءة هذه القصيدة ، وكان الشابي قد أرسلها لتشر
في أعداد مجلة " أوصلو " صااح " هذا هو الشعر الذي نشدناه ،
ونشده من قبلنا ، فضلوا الطريق وظللناه ، حتى ظفربه الشابي
وحده من دوننا ، وكان أبوشادي يرقص طربا ، ويهتر جهورا وهو
ينشدها . " (١)

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام كاللحن كالصباح الجديد
كالسما الضحك كالليلة القمر كالورد كالبسم الوليد
بألها من وداعة وجمال وشباب منغم أميلود
وبعد أن يصفها بالطهارة والوداعة ، يقول :

فتأملت في الوجود كلحن عبرى الخيال حللوا النشيد
خطوات سكرانة بالاناشيد وصوت كرجع ناي بعيد
قوام يكاد ينطق بالألحان في وقفة وقممود
كل شيء موقع فيك حتى لفتة الجيد ، واهتزاز النهود
فجبهته نغم ، ولحيته
ثم يخاطبها

أنت ... أنت الحياة في رقة الفجر في روض الربيع الوليد
أنت ... أنت الحياة كل أوان في رواء من الشباب جديد
أنت ... أنت الحياة فيك وفي مهبك آيات سحرها الممدود
أنت دنيا من الاناشيد والأحلام والسحر والخيال المديد

(١) طه عبد القادر سرور ، أبو القاسم الشابي ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٠٥ .
١٤٦ / ٠٠٠

انت فوق الخيال والشعر والفن ، وفوق النهى وفوق الحدود
انت قدسي ومعدى وصباحي ، ورهمي ونشوتي وخلودي (١)

فهني كل شي* في عالم الشاعر ، عني حياته العذبة الجميلة
الصادقة ، لقد ارتفع بها الى عالم من المثل والاحلام ، فهني ليست
من عالم الناس ، ثم يقسول :

يا ابنة النور انني أنا وحدي من رأى فيك روعة المعبود
قد عيني اعش في ظلك المذب وفي قرب حنك المشهود
عيشة الجمال والفن والالهام والطهر والسنى والسجود

وحين عرض الدكتور عبد القادر القبط لهذه القصيدة ، قرر أن
الشابي شاعر رومانتيكي ، وشعره يمثل كل خصائص الرومانسية ، ففيه
حدة الماطفه والمبالغة والانفعال ، والانطلاق في التعبير عن الاحساس
الى ابعاد غاية ، ولعلّ أوضح مثال لهذه النزعة تصديته " صلوات في
هيكيل الحب " بضرعتها التي يحمل العنوان شيئاً كثيراً منها " (٢)

ومن جميل غزله الملي* بالصور الفنية التي تتوالى الواحدة بعد
الاخرى في خصوصية عجيبة ، تمثل صيد ابي القاسم الفني ، الذي لم يتح
له الزمان ان يفيض بأناءه ، وانما تدفق سيالا لا يجيش بالحياة وكأنما
الشاعر كان يسابق الزمن فحشد كل ذخيره فيما استطاع ان ينظمه
في حياته القصيرة *

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١٢١ - ١٢٣ .

(٢) د . عبد القادر القبط ، مجلة الاديب اللبنانية ، ص ١٢ ، ج ٣ (مارس ١٩٥٣)

وهنى الليل والربيع حوالينا من السحر والرؤى والسكون
 معبدا للجمال والحب شعريا ، شهدا على فجاج السنين
 معبدا ساحرا ، مباخره الزهر ، على الصخر ، والثرى والفصون
 كل زهر يصوع منه اريج من بخور الربيع ، جم الفتنون
 ونجم السماء فيه شموع أوقدتها للحب روح القسرون

وهذه المشاهد الجميلة التي يراها في عيني حبيبته :

أى دنيا محورة ، أى رؤيا	طالعتني في ضوء هذى الميون
زمر من ملائكة الملا الأعلى	يفنسون في حنو حنسون
وصبايا رواقص يتراشقن	بزهرة التفاح والياسمين
في فضاء مورد حالم ساه	أطافت به عذارى الفنسون (١)

هذا الحب الذى عاشه الشابي هو حب رومانسي ، انه حسب
 لذات الحب ، لا شيء آخر ، ومن الرومانسيين من لا يحسب الا ليمد من
 بالحب قلبه ، يستعذبا في سبيله المذاب يقول موسيه " اى الهسه
 الشمر ، ما يهمني من موت أو حياة ؟ انني احب وأريد ان يشحب لوني
 احب وأريد المذاب ، احب واهب عبقريتي جزاء قلبه ، احب وأريد ان
 احس على خدى فيض نبع من الدموع لا يفيض " (٢)

وطبيعي ان تحتل المرأة في ذلك الادب مكانا رفيعا ، لم تظفر
 بمثل من قبل ، فقد ادى السمو بالمعاطف ، والصدق فيها ، الس نوع
 من تهديس المرأة ، والاشادة بها ، والخضوع لسلطانها ، ولم يكن

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٢) محمد غنيمي هلال ، الرومانتيكية ، ص ١٤٧ . ١٤٨ / ٠٠٠

خضوعهم آية خنوع وضعف ، بل كان صدره صدق الماطفه .

واكد حقيقة رومانسية الحب عند الشاعر - الدكتور احسان عباس -
حين عرض لقصيدة الشابي - ايتهال الحاله بين الموصف - وفيها يقول :

انت كالزهرة الجميلة في الغاب	ولكن ما بين شوك ودود
والرياحين تحسب الحسك الشرير	والدود من صنوف السورود
فانهي الناس .. انما الناس خلق	مفسد في الوجود غير رشيد
والسعيد السعيد من عاشك الليل	فربما في اهل هذا الوجود
ودعهم يحيون في ظلمة الاسم	وميشي في طهره المحمود
كالملك البري ، كالوردة البيضاء	كالموج في الخضم البعيد
كاغاني الطيور ، كالشقق الساحر	كالكوكب البعيد السعيد
كتلج الجبال ، يغمرها النور	وتسمو على غبار الصعيد
انت تحت السماء روح جميل	صافه الله من غير الورود
وبنو الارض كالقنود ، وما اضيع	عطر السورود بين القنود
انت من رهشة الاله ، فلا تلقي	بفن السما لجهل العبيد
انت لم تخلق ليقرئك الناس	ولكن لتعبدى من بعيد (١)

ويرى الدكتور احسان عباس ، ان هذا الشعر مدائي ، وأن
رومانطيقية الشاعر سلبية لا نرى في الناس الا الشوك والدود والفساد (٢)

وتظهر رومانسية الشاعر واضحة في البيت الاخير من القصيدة :

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١٥٥ .

(٢) د . احسان عباس ، فن الشعر ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٩ ، الطبعة
الثالثة ، ص ٢٤٧ .

انت لم تخلفي ليقربك الناس ولكن لتعبدى من بعيد

فهو لا ينشد الحب بغية ملذات الحس ، ومتع الجسد ، وهو في هذا يتفق مع فكتور هوجو زعيم الرومانسية حين يقول مخاطباً حبيبته " اني احبك حبا صادقا ، وأأسفاه اني احلم بك حلم الاعمى بالضوء ، سيدتي اصغ اليّ : فندى احلام لا عداد لها ، احبك من قريب ومن بعيد ، وفي جوف الظلام ، ولا أجرؤ على لمس طرف اصبعك . " (١)

ولكن هل احب الشاعر حبا رومانتيكيا فحسب ، الا يوجد في شعره ما يصور متعة جسدية ؟ لقد اجبت على هذا السؤال حين عرضت لرأى الشاعر " في المرأة في الادب العربي "

ومعد فالقارى لديوان الشابي ، يلاحظ ان جانب رومانسيته المحببه وصورته الفنية المعبرة ، وجمال الموسيقى ، يلاحظ وحدة القصيدة المضمومة وسهولة اللفظ . . .

* * *

(١) محمد غنيمي هلال ، الرومانتيكية ، ص ١٤٦ .

لعلّ أُنس ما يواجهه الباحث حين يتعرّف لدراسة الشابي ،
هو المموض في كثير من المواقف عنده ، ولكن هذا المموض
سرعان ما ينجلي أمام الوقفه المتأمله العميقة ، ومن جوانب هذا
المموض ، قصائد كثيرة تتف بهما الشاعر للحياة ، وفلّى لهما ،
وشغف بمتعتها ، وقصائد أخرى استعجل فيها الصوت ، وكفاه
بالصباح ، الذي يشرق فيزيل دجى الليل ، ويبدد حلكته ، فالصوت
عنده اشراقه تبديد ظلمات الحياة ، فالحياة اذن مظلمة مكفهسة
قاسية ، ومثل هذه القصائد تشير السؤال التالي : هل كان ابو
القاسم عاشقا للحياة ، أم كان مبغضا لهما ؟ ووصلت الى نتيجة
أن عشق الحياة هو مبدأ أبي القاسم ، وان كان قد استعجل
الصوت ، انما استعجلته اليه محن شديدة عانها : الصوت الذي
ألمّ بكل حبيب لديمه ، المرض الذي كمن في قلبه ، الشعب الذي
وقف ضده وحاربه . وقادته الى هذا الموقف ايضا رومانسيته
التي وفدت اليه من روافد عده .

ثم هناك مموض آخر جللّ أبا القاسم ، هو موقفه من
شعبه ، فهناك القصائد التي عبّرت عن حبه لشعبه ، وشغفه به ،
تمثلت في العديد منها دعوة صارخة انبعثت من نفس حسّاسه
صادقه ترجو الخير له ، ثم تلك الصرخات التي وجهها في
قصائد كثيرة منذرا المستعمرين مهددا اياهم بثورة هذا الشعب
... ومع ذلك فأنت واجد في ديوانه الكثير من القصائد التي
يضطغن فيها الشاعر على هذا الشعب ، ويتمنى لو يكون اعصارا
مد مرا يودي به ، وفأسا يجتث بها جذوره ، وقصائد أخرى

يتهم فيها شعبه بالجنون ، وانهم ليسوا أهلا للحياة . هذه
القوائد تضع الباحث أمام استفهام ملح ، الى اين ذهب أبو
القاسم في علاقته مع شعبه ؟ هل هو من محبيه أم هل هو
مبغضيه ؟ رأيت ان الشاعر هو مع الشعب واليه ، وأن
نقته على شعبه نبعت من حرصه عليه ، حرص ان يكون قويا
شجاعا رافضا الظلم بعدا عن العجز ، وأبى الشعب الا ان يستكين
ويخضع ، ولكن الشابي فيما أرى جانبه التوفيق حين سدد سهامه
الى شعبه ، لأن الثورة لا يفجرها ظلم وقع ، وحيف حصل ، انما
يفجرها وعي ونضج ، وهذه مسئولية الفئة الواعية النابهة فسي
المجتمع ، وأنا لا يمكن ان نكلف نفسا الا وسعها . وقضية الشاعر
عاطفية ، لا تبررها الا رومانسيته التي ضربت من المجتمع وأوت الى
الغاب تناجيه وتحاوره ، وأبعدت عن الشعب تعلمه . وقد يكمن
سبب آخر ، هو اعتلال صحته ، الذي أثر على سكون اعصابه
فجعله ضيقا برما ، لا يستطيع المحاوره والاقناع .

وأخطر ما يواجهه الباحث في ادب الشابي هو موقفه من
القديم الذي تبدى في كتابه " الخيال الشعري عند العرب " .
والذي اتهم فيه خيال العرب بالضحالة والقصور عن الابداع ،
واتهم الفكر العربي بالمادية والسطحية . ورأى أن ادب العربي
القديم وان كان كنزا نرجع اليه كلما دعت الحاجة ، الا أن اعجابنا
به يجب ان لا ينقلب الى تقديس ثم جمود . ويرى ان الادب
العربي قديما عبّر عن حياتهم أحسن تعبير . ونحن في حاجة
لادب يصبر عن ذواتنا وقضايانا المعاصرة . وما يؤخذ على الشابي
في هذا المجال هو نمبرته الخطابية الصالية التي اتسم فيها

اسلوبه حين عرض لهذا الموضوع . ووقفت في بحثي وقفه طويلا عند هذه المشكلة وناقشتها ، وأحب أن أضيف أن رغبة الشابي الملححة في التجديد ، وقصر عمره الذي لم يتح له المزيد من رسوخ القدم في دراسة الادب العربي القديم ، هي التي عصفت به ليقف هذا الموقف ، ولكن هذا لا يعني ان كتابه خلا من كثير من القضايا الجديرة بالدراسة والاهتمام . ولعل أهمها ضرورة ان يكون لنا أدب معاصر يعبر عن ذواتنا ويغوص في اعماق واقعنا ، يبين العيوب ، لينقد ويوجه .

ثم موقفه من المرأة ، حين خلع عليها رداء ملائكيها وسما بها الى عالم من المثل والاحلام ، وان كما مع الشابي ، نقر أن المرأة نصف المجتمع ، وهي أمه التي فذته بلبانها ، وأفرقت عليه من عنانها ، الا اننا نرى ان المرأة انسان ، لها حسناتها ولها عيوبها .

تم بحمد الله

* * *

المراجع

- ابراهيم الساموكي ، نصوص ودراسات عربية وافريقية في اللغة والتاريخ والادب ، وزارة الاعلام ، مديرية الثقافة العامة العراقية سلسلة الكتب الحديثة ، دون تاريخ .
- احسان عباس ، فن الشعر ، نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٩ .
- ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، القاهرة ، دار الكتب الشرقية الطبعة الاولى ، ١٩٥٥ .
- ابو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، الشركة القومية للنشر والتوزيع ، تونس ١٩٦١ .
- ابو القاسم الشابي ، الادب العربي في العصر الحاضر ، مقدمة ديوان الينبوع ، احمد زكي ابو شادي ، الطبعة الاولى ١٩٣٤ .
- ابو القاسم محمد بدري ، الشاعران المشابهان ، الشابي والتيجاني دار المعارف بصر ، ١٩٥٩ .
- ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته وشعره ، منشورات دار مكتبة الحياة ، الطبعة الثانية ١٩٦٠ .
- ابو القاسم محمد كرو ، آشار الشابي وصداه في الشرق ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٦١ .
- ابو القاسم محمد كرو ، دراسات عن الشابي ، دار المغرب العربي تونس ، دون تاريخ .
- خليفه محمد التليسي ، الشابي وجبران ، دار الثقافة بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦٧ .

- خير الدين الزركلي ، الاعلام ، ج ٦ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٥ .
- درويش الجندى ، الرمزية في الادب العربي ، مكتبة النهضة المصرية
بالفجالة ، ١٩٥٨ .
- رجاء النقاش ، ابو القاسم الشابي ، شاعر الحب والثورة ، دار
القلم بيروت ، لبنان ، الطبعة الاولى ١٩٧١ .
- زين العابدين السنوسي ، ابو القاسم حياته ، ادبه ، تونس ١٩٥٦ .
- سليمان ربيع ، محاضرات القاها على طلبة السنة الاولى للماجستير
في جامعة الازهر ، للعام الدراسي ١٩٧٢/١٩٧٣ .
- شوقي الجمل ، تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، مكتبة الانجلو
المصرية ، ١٩٧١ .
- شوقي ضيف ، دراسات في الشعر العربي المعاصر ، دار المعارف ،
الطبعة الثالثة ، دون تاريخ .
- شوقي ضيف ، الرثاء ، سلسلة فنون الادب العربي ، الفن الغنائي -
دار المعارف ١٩٥٥ .
- طه عبد الباقي سرور ، ابو القاسم الشابي ، القاهرة ١٩٥٨ .
- عبد الحميد مسعود الجزائري ، المغرب العربي وكفاحه ، القاهرة
دار الجامعة للطبع والنشر ، دون تاريخ .
- عبد اللطيف شرارة ، الشابي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٧٣ .
- عمر فروخ ، شاعران معاصران ، ابراهيم طوقان ، ابو القاسم الشابي ،
بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٥٤ .
- محمد الحليوى ، مع الشابي ، سلسلة "كتاب البحث" تونس ١٩٥٥ .

الفهرس

صفحة

٥	المقدمة
٧ - ١١١	الباب الاول
٨ - ٢٠	<u>الفصل الاول : بيثة ابي القاسم الصامه</u>
	تونس تحت وطأة الاحتلال الفرنسي
٨	(١) قصة الاحتلال
١١	(٢) مبرر الاحتلال
١٣	(٣) تونس بين انياب الذئاب
١٥	(٤) اعتداء فرنسا على السلطة القضائية التونسية
١٦	(٥) فرنسا تعمل على نحو الروح القومية ومحاربة اللغة العربية
١٨	(٦) فرنسا تهمل الناحية الصحية في القطر التونسي
٢١ - ٣٩	<u>الفصل الثاني : بيثة ابي القاسم الخاصة</u>
٢١	(١) مولده ونشأته
٢٢	(٢) هافته
٢٣	(٣) ابو القاسم الشابي كان يجهد اللغات الاجنبية
٢٤	(٤) كان ابو القاسم محبا للطالعة
٢٥	(٥) مراحل حياته الثقافية
٢٦	(٦) ترعته الحركة الطلابية المنادية بالاصلاح
٢٦	(٧) حبسه
٢٧	(٨) زواجه
٢٨	(٩) وفاة والده وما سببته له من احزان
٣٥	(١٠) الشابي يرفض العمل بالوظائف الحكومية
٣٦	(١١) مرضه ووفاته

- محمد عبد المنعم خفاجي ، دراسات في الادب المصري الحديث
ومدارسه ، الحلقة الاولى ، دار الطباعة المحمدية بالازهر ، القاهرة
دون تاريخ .
- محمد غنيمي هلال ، الرومانتيكية ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ،
دون تاريخ .
- نازك الملائكة ، تضاييا الشعر المعاصر ، منشورات مكتبة النهضة
بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٦٧ .
- نعمات احمد فتود ، شعب وشاعر ، ابو القاسم الشابي ، مؤسسة
الخانجي بصر ، ١٩٥٨ .
- يوسف اسعد دافر ، مصادر الدراسة الادبية ، بيروت ، ج ٢ ،
١٩٥٥ .

الدوريات

- عبد القادر القط ، مجلة الاديب اللبنانية ، س ١٢ ، ج ٣ ، مارس
١٩٥٣ .